طيفُ الخيَال

تأليف

علي بن الحسين بن موسى

الملقب بالشريف المرتضى

٣٥٥ — ٤٣٦ هـ

تحقيق

محمد سِيد كيلاني

ماجستير كلية الآداب بجامعة القاهرة

ملتزم الطبع والنشر

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

طيف الخيال

تأليف

علي بن الحسين بن موسى

الملقب بالشريف المرتضى

٣٥٥ — ٤٣٦ هـ

تحقيق

محمد سيد كيلاني

ماجستير كلية الآداب بجامعة القاهرة

ملتزم الطبع والنشر

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

الطبعة الأولى

١٣٧٤ ﻫ — ١٩٥٥ م

إهـــداء الكتاب

إلى العالم الجليل الأستاذ الدكتور طه حسين :

طالعت كثيرا جدا من سير الأدباء الغابرين والمعاصرين ، فلم أر من ضارعك في كرم أخلاقك ، ولا من نفع الناس كما نفعتهم بعلمك ، فأنت تعيش ، لغيرك ، أكثر مما تعيش لنفسك ، إنك فَلْتة من فلتات الزمن .

ولإعجابى بكم ، أهدى هذا الكتاب إليكم .

المخلص

محمد سيد كيلانى

تقـــديم

كتاب « طيف الخيال » للشريف المرتضى ، من الـكتب القيمة التى تنشر لأول مرة ، عن نسخة شمسية ، محفوظة بدار الـكتب المصرية ، تحت رقم « ١٠٣١٣ ز » ، مأخوذة عن نسخة خطية بمـكتبة الأسكوريال ، صفحاتها ثمان ومئتا صفحة من الحجم الصغير ، جيدة الخط ، فرغ من كتابتها سنة إحدى وتسعين وخمسمائة هجرية . وقد جاء على غلافه أنه للشريف الرضىّ . وسجلته دار الـكتب فى فهارسها عَلَى أنه للشريف الرضىّ كذلك ، ولـكن القارئ سيدرك من أول وهلة ، أن هذا الـكتاب من تأليف الشريف المرتضى . فالمؤلف يشير إلى كتابه « الشهاب ، فى الشيب والشباب » . وهذا الـكتاب كما نعلم للمرتضى ، ثم ينقل عن أخيه شعرا وأخبارا ، بعد أن يترحم عليه . ومعلوم أن الرضى مات قبل أخيه المرتضى .

ونرى فى هذا الـكتاب موهبة المرتضى فى نقد الشعر وفهمه

وتذوقه . وردوده القوية عَلَى الآمدىّ ، تدل عَلَى افتات بارعة ، ونظرات موفقة . وفى الكتاب جملة من شعر المرتضى ، الذى ضاع ولم يبق منه إلا القليل ، وفيه فوائد أدبية جمة .

أما موضوع الكتاب فهو « طيف الخيال » الذى أكثر الشعراء من ذكره فى قصائدهم الغزلية . وهو موضوع طريف حقا . فقد كان الشاعر العاشق الولهان ، الذى حالت الظروف بينه وبين محبوبته ، يظل مشغولا بهذه المحبوبة ، دائم التفكير فيها . فلذلك كان يراها فى النوم ، وينال منها ما يشاء . ثم يتحدث عن ذلك فى شعره . فالحديث عن «طيف الخيال» هو حديث عن أحلام كل شاعر بمحبوبته ، وقد كثر هذا فى الشعر العربى ، حتى صار موضوعا يحتاج إلى دراسة مستقصية منظمة. ولعل المرتضى أول من تناول هذا الموضوع فى كتاب مستقل ، ولكنه لم يستقص كل ما ورد فى الشعر عن طيف الخيال ، بل قصر كلامه على شعر أبى تمام والبحترى ، وشعره وشعر أخيه الرضىّ ، وإن كان قد أشار إلى أبيات قليلة لبعض شعراء آخرين ، مثل قيس بن الخطيم ، والنمر بن تولب ، ووازن بين معانى هذه الأبيات وبين ما ورد عند البحترى وأبى تمام .

أما مؤلف هذا الكتاب ؛ فهو أبو القاسم على بن الحسين بن موسى الملقب بالمرتضى .

ولد ببغداد سنة ٣٥٥ هـ ، وبدأ حياته الدراسية بحفظ القرآن على يدى

أبى إسحاق إبراهيم بن أحمد الطبرى الفقيه المالكى . ثم درس على أبى عبد الله محمد بن النعمان الفقيه الإمامى ، الملقب بالشيخ المفيد ، وبابن المعلم ، بمسجده بالكرخ .

وكان المفيد المتوفى سنة ٤١٣ هـ فقيه الشيعة الإمامية فى عصره ، متبحرا فى كثير من العلوم ، مبجلا محترما ، صاحب منزلة رفيعة عند الملوك والأمراء البويهيين، حتى إن عضد الدولة كان يزوره . ومن تلاميذه الرضى والمرتضى وأبو جعفر الطوسى . وكانت مجالسه حافلة بالعلماء من سائر الطوائف .

وقد ذكره صاحب النجوم الزاهرة(١) بقوله : « وفيها ـ ٤١٣ ـ توفى محمد بن محمدالنعمان أبو عبدالله فقيه الشيعة ، وشيخ الرافضة وعالمها، ومصنف الكتب فى مذهبها . قرأ عليه الرضى والمرتضى وغيرهما من الرافضة . وكان له منزلة عند بنى بويه وعند ملوك الأطراف الرافضة ».

***

وتلقى المرتضى الاعتزال عَلَى يد قاضى القضاة ، عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار ، أحد شيوخ المعتزلة فى عصره ، ومؤلف كتاب « المغنى » الذى عرض فيه لتاريخ أبى بكر وعمر وعثمان. وقد ألف المرتضى كتابا سماه

(١) الجزء الرابع ص ٢٥٨ ط دار الكتب .

« الشافى » ردا عَلَى كتاب المغنى . وقد تضمن هــذا الكتاب ـ كما يظهر لنــا مما نقله[1] ابن أبى الحديد فى شرحه ـ مطاعن فاحشة فى الخلفاء الثلاثة بلغت حد إخراجهم من زمرة المسلمين . وهــذا ما حمل صاحب النجوم الزاهرة على إطلاق لسانه فى المرتضى وأخيه . وقد توفى عبد الجبار سنة ٤١٥ بعد أن عمر طويلا .

أما النحو وعلوم اللغة فقد تلقاهما عن أبى على الفارسىّ المتوفى سنة ٣٧٧ ، وابن السيرافى المتوفى سنة ٣٨٥ هـ ، وابن جنى المتوفى سنة ٣٩٢ هـ ، وعلى بن عيسى الرَّبَعى المتوفى سنة ٤٢٠ هـ .

وكان المرتضى عَلَى جانب من الثراء ، مكن له من التفرغ للعلم . وقد آلت إليه نقابة الطالبيين بعد وفاة أخيه الرضى . وقدوصفه الثعالبىّ[2] بقوله « نقيب العلويين أبو القاسم الملقب بالمرتضى ، علم الهدى ، السيد المشهور بالعلم ، المعروف بالفهم » .

وذكر ياقوت عن أبى جعفر الطُّوسىّ أنه قال[3] : « توحَّدَ المرتضى فى علوم كثيرة ، مجمع على فضله ، مقدَّم فى العلوم مثل علم الـكلام ، والفقه ،

---

(١) حـ ١ ص ٢٢٠ وما بعدها ط مصطفى الحلبى .

(٢) تتمة اليتيمة حـ ١ ص ٥٣ طهران .

(٣) معجم الأدباء حـ ١٣ ص ١٤٧ دار المأمون .

وأصول الفقه ، والأدب ، والنحو ، والشعر ، ومعانى الشعر ، واللغة ، وغير ذلك . وله ديوان شعر يزيد على عشرة آلاف بيت » .

وينسب المرتضى إلى البخل والحرص على المال[١] . وقد حدث أنه ذهب لزيارة الوزير أبى محمد المهلبى ، فلم يحتفل بقدومه احتفاله بقدوم أخيه الرضى ، حينما زاره عقب انصراف أخيه .

فلما سئل الوزير عن السر فى ذلك ، قال: إنا أمرنا بحفر النهر الفلانىّ وللشريف المرتضى على ذلك النهر ضيعة ، فتوجه عليه من ذلك مقدار ستة عشر درهما أو نحو ذلك ، فكاتبنى بعدة رِقاع يسأل فى تخفيف ذلك المقدار .

وأما الرضى فبلغنى ذات يوم أنه ولد له غلام ، فأرسلت إليه بطبق فيه ألف دينار فرده ... الخ » . وهــذه القصة رواها ابن أبى الحديد مع اختلاف يسير .

وجلّ المؤرخين الذين عرضوا لهذين الرجلين ، يقدمون الرضى على المرتضى . ولا أدرى ما الذى دعاهم إلى هذه المقارنة ، إذ لا يجوز أن يرفع الرضى على حساب أخيه .

***

(١) مقدمة ديوان الرضى ط بيروت .

وكانت تحدث أحيانا بين المرتضى وأخيه جفوة وقطيعة ، فيبدأ المرتضى بنظم قصيدة يعاتب فيها أخاه ، فيرد عليه بقصيدة ، ثم لا يلبث الصفاء أن يعود بين الأخوين ، فيخرجان مع بعض أصدقائهما للتنزه ، أو يجتمعان فى مجلس أنس وطرب ، أو مجلس علم .

وكان المرتضى يحب أخاه حبا جما ، حتى إنه لم يستطع أن ينظر إلى تابوت أخيه حين توفى أو يحضر دفنه ، بل مضى إلى مشهد موسى ابن جعفر الكاظم ، وبقى به إلى آخر النهار ، إلى أن ذهب الوزير فخر الملك أبو غالب ، وألزمه العودة إلى داره .

وقد نظم الشريف المرتضى شعرا كثيرا فى الشيب وذمه ، وألف كتابا خاصا سماه : « الشهاب ، فى الشيب والشباب » .

ومن قرأ شعر أخيه الرضى وجده يكثر من ذكر الشيب وذمه .

وهكذا اشترك الأخوان فى هـذا الباب ، وسارا معا على وتيرة واحدة . فكل منهما يرى أن الشيب باب إلى الموت ، وطريق إلى القبر . وهما يسخران من الوقار الذى يصحب المشيب ، ويريان أنه لا خير فيه .

وفى شعرهما الغزلى تشابه فى المنهج والأسلوب واشتراك فى المعانى

فـكلاهما تغزل بالأعرابيات ، وذكر نجدا والخيام ، وأرض بابل والنسيم وغير ذلك .

***

ومن مؤلفات المرتضى التى وصلت إلينا :

١ — الأمالى ، وهو أشهر كتبه .

٢ — الشهاب ، فى الشيب والشباب — طبع فى الآستانة سنة ١٣٠٢ هـ .

٣ — طيف الخيال الذى نضعه بين يدى القارئ .

والمرتضى شديد الإعجاب بشعره ، كثير الإطراء له ، يزعم أنه أتى فى هذا الباب بما لم يسبق إليه .

أما بعد : فإنى أرجو أن يستفيد القراء من هذا الكتاب ، والله الموفق .

محمد سيد كيلانى

القاهرة فى ٨ جمادى الثانية سنة ١٣٧٤هـ
أول فبراير سنة ١٩٥٥م

مقـــدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

الحمد لله على ما أعطى من فَهم ، وآتى من علم ، وصفى من بصيرة ، وعفّى من جَرِيرة ، ويسّر من طلب ، وسنّى من أدب ، وصلى الله على سيد المرسلين نبيه محمد وآله الطاهرين ، صلاة تكون لحقوقهم كُفُوًا ووفاء .

ومن بعد ، فإننى وقفت عَلَى ما ذكرته ، أمدّك الله بتوفيقه وتسديده ، من شغفك بما اطلعت عليه من كتابى فى « الشيب » وإعجابه لك ، وإطرابه إياك . وأنك استغزرت فائدته ، واستغربت طريقته ، ودعاك ماوقفت عليه منه ، إلى التماس كتاب فى أوصاف «طيف الخيال» . نسلك فيه هذا المنهج ، ونخرجه هذا المخرج ، فإنه أيضا باب قائم بنفسه ، قد أطال الشعراء فيه وأقصروا ، وأصابوا وأخطئوا ، وتصرفوا

وتفننوا . وقد رأيت الإجابة إلى سؤالك ، على ضيق زمانى وقلبى ، وكَلال فكرى ، وكثرة هموم صدرى ، وأن أعتمد على إخراج ما فى ديوانى الطائِيَّين ، ثم ما فى ديوانَى شعرى وشعر أخى ، نضر الله وجهه ، وأحسن منقلبه ، فأنقله على جهته ، من غير إخلال بشىء منه ، وأتكلم على معانيه ومقاصده ، منظِّرا بين نظائره ، كاشفا عن دفائنه وسرائره ، حسبما فعلته فى كتاب « الشيب » . ولأبى تمام فى هذا المعنى التافه اليسير ، فإنه ما عُنى به ، ولا رزق منه . أما البحترىّ فإنه كان مغرما متيما بالقول فى الطيف ، فأكثر فيه وَأغزر ، مع تجويد وإحسان وافتنان ، وتصرف فيه تصرف المالكين ، وتمكن منه تمكن القادرين . وسأنبه على مواقع إحسانه ، ومواضع إغرابه ، بإذن الله .

ومما يفيد تقديمه أن « الطيف » قد يوصف بالمدح تارة ، وبالذم أخرى . ولمدحه وجوه متشعبة .

فما يمدح به أنه يعلِّل المشتاق المغرم ، ويمسك رَمَق المعنَّى المسقَم ، ويكون الاستمتاع به والانتفاع به ، وهو زُور وباطل ، كالانتفاع لو كان حقا يقينا . وهل فرق بين لذة الخيال فى حال تمثلها وتخيلها ، وبين لذة اللقاء الصحيح ، والوصال الصريح . وبعد زوال الأمرين ، ومفارقة الحالين ، ماأجدهما فى فقد متعته ، وزوال منفعته ، إلا كصاحبه .

ومما يمدح به ، أنه زيارة من غير وعد يخشى مَطْلُه ، ويخاف لَيُّهُ وفوته . واللذة التى لم

تحتسب ولم ترتقب، يتضاعف بها الالتذاذ والاستمتاع ، وأنه وصْلٌ من قاطع ، وزيارة من هاجر ، وعطاء من مانع ، وبذل من ضنين ، وجود من بخيل . وللشيء بعد ضده من النفوس موقع معروف غير مجهول .

ومن مليح مدحه وغريبه : أنه لقاء واجتماع لا يشعر الرقباء بهما ، ولا يخشى منع منهما ، ولا اطلاع عليهما . والتهمة بهما زائلة ، والريبة عنهما عادلة .

وأنه تمتع وتلذذ لايتعلق بهما تحريم ، ولا يدنو إليهما تأثيم ، ولا عيب فيهما ولا عار، وقد قاما مقاما فيه ذلك أجمع. وهذا المعنى الأخير مما عندي أني سابق إليه ، ومبتدئٌ به ، لأنني ما رأيته إلى الآن لأحد في نظم ولا نثر . وقد تعجب الشعراء كثيرا من زيارة الطيف على بعد الدار، وشَحْط المزار ، ووعرة الطرق، واشتباه السبل، واهتدائه إلى المضاجع من غير هاد يرشده ، وعاضد يَعْضُده؛ وكيف قطع بعيد المسافة بلاحافر ولاخف، في أقرب مدة ، وأسرع زمان ؟! لأن الشعراء فرضت أن زيارة الطيف حقيقة ، وأنها في النوم كاليقظة ، فلا بد مع ذلك من العَجَب مما تعجبوا منه ، من طي البعيد بغير ركاب ، وجوب البلاد بلا صحاب . ومن المعاني المقصودة في الطَيف، أن يلم بذكر ماهيته وسببه ، والمقتضى لتخيله وتصوره ، كما قال أبو تمام :

نم فما زارَكَ الخيالُ ولكـنَّـكَ بالفِكْرِ زُرتَ طيفَ الخيالِ

وكما قلت :

وَعهدِى بتمويهِ عَيْنِ المحبِّ   تَنِمُّ على قَلْبِهِ الطائرِ
فَلمَّا التقَيْنـا بِرغمِ الرُّقا   دِموَّهَ قَلْبِى على ناظِرِى

وهذا المعنى أيضا ، مما ابتدعته واخترعته فى وصف الطيف ، لأننى ما علمت سابقا إليه ، وعاثرا به .

فأما ذم الطيف ، فإنه قد يذم بأنه باطل وغرور ، ومحال وزور ، ولا انتفاع بمـا لا أصل له ، وإنمـا هو كالسراب اللامع ، وكل تخيل فاسد .

وربمـا ذم بأنه سريع الزوال ، وشيك الانتقال ، وبأنه يهيج الشوق الساكن ، ويُضْرِم الوجد الخامد ، ويذكر بغرام كان صاحبه عنه لاهيا وساهيا .

وهذه المعانى فى المدح والذم قد تتشعب وتتركب وتمتزج ، فيتولد بينها من المعانى ما لا ينحصر ولا ينضبط ، بحسب قوة طباع الشاعر ، وصحة قريحته وغريزته . وستشرف مما أذكره ، وأوقظ على معانيه ، وأخرج مكامنه ، على جميع ماتحتاج إليه فى هذا الباب ، بمشيئة الله تعالى . ومن الله أستمد المعونة والتوفيق ، وهو حسبى ونعم الوكيل .

ما جاء في طيف الخيال

قال أبو تمام حبيب بن أوس الطائيّ ، من جملة قصيدة :

زارَ الخيالُ لها ، لا بلْ أزارَكَهُ فِكْرٌ إذا نام فِكْرُ الخلقِ لمْ يَنَمِ
ظَبْيٌ تَقَنَّصْتُهُ لما نَصَبْتُ لَهُ مِنْ آخرِ الليل أشراكًا مِنَ الحُلُمِ
ثم اغتدَى وَبنا مِنْ ذِكْرِهِ سَقَمٌ باقٍ وَإن كانَ مَعْسُولاً مِنَ السَّقَمِ (١)

ووجدت أبا القاسم الحسن بن بشر الآمديّ يتكلم على هذه الأبيات بما أنا أذكره ، ومبين مافيه . قال: (إن قوله « زارالخيال لها ، لا بل أزاركه» ليس بالجيد، لأنه إذا أزاره الفكر فقد زار . فما وجه الاستدراك ؟ فكأنه أراد أن الخيال لم يعتمد الزيارة، و إنما أزاره الفكر . ومثله قام زيد، لا بل أقمته . وكأن قائل هذا يريد ما اعتمد زيد القيام ، بل أقمته أنا) .

وأقول : إن الآمديّ عاب هذا البيت ثم اعتذر لقائله بما هو العذر الصحيح الذي يخرجه من أن يكون معيبا . فأيّ معنى لقوله إنه ليس بالجيد ؟ وقد فطن من غرضه لما فيه العذر ، وزوال العيب والقدح . فكأنه جمع بين الشيء وضده . وإنما يعيب بما ذكره من لم يفطن لما فطن له . وقوله « زار الخيال » إضافة الزيارة إلى

(١) من قصيدة يمدح بها محمد بن عبد الله بن طاهر (ديوانه ٢ : ٤٢) .

الخيال . والظاهر من قول القائل « قام زيد » إضافة القيام إليه على سبيل الاختيار . فيجوز أن يستدرك قائل هذا القول على نفسه ، فيقول عقيب قوله « زار الخيال » ، بل أزاركه كذا وكذا . وعقيب قوله « قام زيد » ، بل أقامه فلان ، لأنه استدراك صحيح ، واقع فى موقعه . وليس لأحد أن يخالف فى هذه الجملة ، و يدعى أن قول القائل « قام زيد » إنما يفيد حصوله على هذه الصفة ، ولا يفيد أنه باختياره و إيثاره ، دون حمل حامل . و بعث باعث . لأن هذا إذا سلم على مافيه، كان الاستدراك فى موضعه أيضا ، لأنه إذا قال « زار الخيال » واحتمل هذا القول زيارة الاختيار ، من غير بعث باعث، واحتمل وقوع الزيارة عن حمل حامل ، وقود قائد، جاز أن يزيل هذا القائل الاحتمال والإبهام . فيقول : « لا بل أزاركه كذا وكذا » ، وهذا مالا شبهة فيه . ثم قال الآمدى : «ويروى : إذا نام فكر الخلق لم ينم» . ثم قال : (لم يرد حقيقة النوم ، و إنما أراد لم يفتر ولم يسكن ، كما يقال فلان لاينام عن هذا الأمر ، أى لا يفتر عنه ولا يقصر) . ويقول إن الرواية التى ذكرها فى إبدال لفظة الخلق بالحلو لا بأس بها ، و إن كان لفظ الخلق أعم وأوكد فى المعنى المقصود ، فإن الحلو ، يدخل فى جملة الخلق ، ولايدخل الخلق فى معنى لفظ الحلو . والذى فسره فى نفى النوم، أنه إنما أراد الفتور والسكون، ظاهر، لا يشكل مثله فيفسر. ثم قال : (وقوله « من آخر الليل » ولم يقل « من أول الليل » : يريد أنه لا ينام بالليل وأنه يسهره . وإنما يهوم[1]

---

(١) هوم الرجل تهويما : إذا هز رأسه من النعاس .

فى آخره تهويما، فيطرقه الخيال فى ذلك الوقت) ثم قال: (قوله « وإن كان معسولا من السقم » : أى وإن كان حلوا من الأسقام: أى ممزوجا بالعسل . ويرويه قوم : «وإن كان مغسولا من السقم» وليس بشىء) . قال الآمدى: « وهذه الأبيات حِسان ، وغرض صحيح مستقيم». ونقول: إن الذى قاله الآمدى فى معنى تخصيصه آخر الليل دون باقيه ، جائز، ممكن أن يكون مقصودا . وفيه وجه آخر ، وهو أن الخيال لا يطرق فى العادة إلا مع وفور النوم وغزارته والاستثقال فيه . وهذا إنما يكون فى أواخر الليل ، ومع استمرار النوم وطول زمانه ؛ فلهذا خَصَّ آخر الليل . وفسر قوله «كان معسولا من السقم » ، مع أنه واضح لا يشكل وترك تفسير المشكل ، وهو أن يقال: كيف استحلى هذا السقم والتذه ، حتى جعله معسولا، وكأنه ممزوج بالعسل ، والسقم لا يستحلَى . والوجه فى ذلك أن السبب فى ذكره للخيال ، وشوقه إليه ، وأسفه على فراقه ، الذى جعله سقما من حيث كان مؤلما ، لما كان هو طروق الخيال، وتمثله له وتخيله . وكان ذلك التخيل والتصور ملذا ممتعا ، مستحلًى مستعذَبا ، جعل المسبب عنه من التألم بقوته بمنزلته. فقد يوصف المسبب بأوصاف السبب، للعلاقة التى بينهما ، والاتصال الذى يجمعهما . وما رأيناه أثنى على البيت الثانى من هذه القطعة ، ولا مدحه بما يستحقه من المدح ، فإنه فى غاية الحلاوة والطلاوة ، وسلاسة الألفاظ ، وعذوبة النسج . وقَدَح فى البيت الأول بما ليس يقدح على اعترافه ، فليته

جمع بين القدْح المقدوح ، والمدح للممدوح . فإن قال : قد مدحت جملة الأبيات، وقلت إنها حِسان، وأغراضها مستقيمة . قلت : هذا مدح تكلفته ، وما نراك إذا أعجبك وأطربك معنى للبحترىّ ، تقتصر على هذا القدر من المدح . وقد كان ينبغى أن تخص البيت الثانى بزيادة الإطراء والمدح، وتوقظ على جودة طرحه وسبكه ، فإنه لا يجرى مجرى ماتقدم عليه ولا تأخر عنه، وما فعلت ذلك .

وقال أبو تمام أيضا من قصيدة :

عادَكَ الزَّوْرُ ليلةَ الرَّمْل مِن رَمْــــلَةَ بَيْنَ الحِمَى وَبَيْنَ المَطالِى
نَمْ فمــا زارك الخيالُ ولـكِــنَّــكَ بالفـكرِ زُرْتَ طيْفَ الخيالِ[1]

قال الآمدىّ : (قد أكثر أصحاب أبى تمام الفخر بهذا البيت، والتنويه بذكره ، وأفرطوا فى استحسانه ، وقالوا كشف عن العلة فى طروق الخيال، وبيّن عن المعنى) . قال : والبيت حسن ، وإنما أخذ معناه من قول جِران العَوْد :

أهلًا بطيفِكِ من زَوْرٍ أتاكَ بهِ حديثُ نَفْسِكَ عَنْهُ وَهُوَ مَشْغُولُ

فقوله « وهو مشغول » : أى أنه لم يزرك على الحقيقة ، فبنى أبو تمام من هذا قوله « ما زارك الخيال » ، وبنى من قوله « أتاك به حديث نفسك » قوله

(١) ديوان أبى تمام طبع بيروت ١٨٨٩ ص ٤١٠ .

« ولـكنك بالفـكر زرت طيف الخيال » : فالمعنى كله لجران العود، و إنما غير أبو تمام اللفظ .

وما كان عندى أن مثله يذهب عليه ماقصده أبو تمام مع وضوحه . ومعنى « وهو مشغول » : أى وهو مشغول عنك ، لاتخطر بباله، ولا يحدث نفسه بك . كما تحدث نفسك به ، و يخطر ببالك ولا يفارق ذكرك. وأراد أن يقال: قوله : حديث نفسك عنه الذى جعله سبباً للطيف وتخيله ، فقابل بقوله « وهو مشغول » : أى لا يحدث نفسه بك ، كما تحدث نفسك به .

فأما طعن الآمدى على الأبيات الميمية التى لأبى تمام ، ودعواه أنه لا حلاوة لها ولا طلاوة ، فمن قبح العصبية ، لأن قوله :

اللياليِ أحْفَى بقَلْبِي إذَا ما جَرَحَتْهُ النَّوَى مِنَ الْأيَّامِ

صحيح الوضع ، مليح المعنى ، لأنه إذا كان لاتلاقىَ بينه و بين محبو به نهارا ، ولا وصل ولا قرب ، وأن ذلك كله يكون ليلا ؛ فالليل أنفع له من النهار وأمتع . وأى شىء يراد من أبى تمام أن ينتهى إليه فى هذا البيت أكثر من هذا ؟ وأما البيت الثانى فجيد المعنى ، مليح اللفظ .ومن عذب اللفظ وغريبه قوله « سِرًّا من الأجسام » لأنه لاحظَّ للأجسام ، فى الانتفاع بطيف الخيال ، وجعل ذلك التمثيل والتخيل إنما هو للأرواح ، منفردة عن الأجسام ، على مذهب من يرى من الفلاسفة أن السبب فى رؤيا المنام ، اطلاع النفس من عالمها على ما يكون من الأمور ، و يجعلون للنفس ثيابا

و قِواما من غير توسط الجسد. وهذا، و إن كان مذهبا باطلا ، فقد دلت الأدلة الصحيحة على فساده ، فيجوز أن يستعيره الشاعر فى بعض كلامه تعريبا وتقريبا .

قال ــ أدام الله علوه ــ ولى على هذا البيت فى وصف الخيال :

تلاقينا بأرواحٍ وفارقنا بأجسادِ

وقال ــ أدام الله علوه ــ وستجىء هذه الأبيات فيما أخرجه من ديوان شعرى بمشيئة الله .

فأما البيت الثالث الذى أوله « مجلسٌ لم يكن لنا فيه عيبٌ » فهو قريب ، وليس يهجّنه إلا لفظة الدعوة ، فإنها كلمة عامية ، قلما يستعملها فصحاء الشعراء . فالطعن على هذه الأبيات على ما بيناه عصبية ظاهرة . ولى فى تحقيق السبب فى طيف الخيال ، ونفى أن تكون زيارته حقيقية ، ما هو أجود من قول أبى تمام :

* زَارَ الخيالُ لها ، لا بَلْ أَزارَكَهُ *

ومن قوله :

نَمْ فما زارَكَ الخيالُ ولكِنَّكَ بالفِكْرِ زُرْتَ طَيْفَ الخيالِ

وهو قولى :

زارَ وما زارَ سِوَى ذِكرِهِ وبَيْنَنَا داوِيَّةٌ(١) سَمْلَقُ

(١) الداوية : الصحراء المترامية الأطراف . والسملق التى لا نبات فيها .

وقولى أيضا :

حتى التقَيْنَا عَلَى رَغْمِ الرُّقادِ وَما ذاكَ اللِّقاء سِوَى وسْواسِ ذِكْراكِ

أما سلب الطيف العلم بما وقع الانتفاع به منه ، وأنه لايدرى ولا يشعر به ، فالبحترى يعيده ويبديه. ويأتى فى شعرى منه الكثير بصور مختلفة، وصيغ غير مشتبهة . ومع الاشتراك فى المعانى ، إنما يقع الإحسان فى حسن النسج ، وسلامة السبك ، وأن تكون العبارة عن ذلك المعنى ناصعة ، وفى القلوب متقبلة .

وقال البحترى أيضا :

إنَّ رَيًّا لم تَسْقِ رِيًّا مِنَ الْوَصْـــلِ ولم تَدْرِ ما هَوَى[١] الْعُشّاقِ
بَعَثَتْ طيفهَا إلَىَّ ودُونِى وَخْدُ شهرَيْنِ لِلمَهارِى الْعِتَاقِ[٢]
زارَ وَهْناً من الشآمِ فحَيَّا مُسْتَهاماً صَبا بأرْضِ[٣] العِرَاقِ
فقَضَى ما قَضَى وعادَ إليها والدُّجَى فى بُرُودِهِ[٤] الأخلاقِ
قد أخَذْنا من التَّلاَقى[٥] بحظٍّ والتَّلاَقى فى النَّوْمِ عِدْلُ التَّلاقِى[٦]

يعنى بقوله : « عِدْل التلاقى » : فى الحقيقة ، أى فى اليقظة . وهذه

(١) ديوانه : جوى . (٢) المهارى : جمع مهرية ، وهى الإبل المنسوبة لمهرة بن حيدان ، وهم حى عظيم . والعتاق : الكريمات الأصول .

(٣) ديوانه : بأعلى . (٤) ديوانه : ثيابه . (٥) ديوانه : اللقاء .

(٦) من قصيدة له يمدح بها أبا نهشل (ديوانه طبع هندية بالموسكي ٢ : ١٣٧) .

الأبيات لا شبهة على متعصب ، فضلا عن منصف ، فى حسنها ونصوعها .

وقال أيضا :

وزائرٍ زارَ من أعقتِهِ يَميلُ وَزْنًا بأُنسِهِ ذُعُرُهْ
كأنَّهُ جاء مُنجِزًا عِدَةً وَبِتُّ فى الرَّاقبينَ أنتظِرُهْ
لم أُنسَهُ مُوشِكًا عَلَى رَجُلٍ مُدَامِجًا للحديثِ يَختَصِرُهْ
كأنَّمَا الكاشِحونَ قَدْ خرَصُوا مكانَهُ أوْ أتاهُمُ خَبَرُهْ(١)

ومن العجب أن الآمدىّ ذكر أن هذه الأبيات أحسن وأحلى من التى هى قبلها. والأمر بخلاف ماظنه ؛ لأن أبيات «القافِيَّة» أطبع وأنصع، وأبعد من الكُلفة ، والصنعة فيها أخفى ، وكلامها أحلى . وهذه الأبيات الرائية معانيها أجود من ألفاظها ، وتظهر فيها بعض كُلفة الصنعة ، وهى مع ذلك فى غاية الحسن، إلا أن تفضيلها على الأولى غير صحيح . وأما قوله «يميل وزنا بأنسه ذُعُره » فإنما يريد به أن ذعره أرجح وأزيد من أنسه . فأما قوله «قد خرَصوا مكانه» فإنما يريد أنهم قد حَزَرُوا مكانه، وسبق ظنهم إليه ، من الخَرْص، الذى هو حَزْر ثمرة النخل، لا من الخَرص الذى هو الكذب. وهذه الأبيات ليست خالصة لوصف الطيف ، بل يجوز أن يكون المراد بها زائرا زار فى اليقظة . فالكلام محتمل فى الطيف وغيره .

---

(١) الأبيات ليست فى نسخة الديوان طبعة هندية ؛ وله شعر كثير لم ينشر بعد .

وقال البحتري أيضا من قصيدة :

إنَّ العَميدَ صبابَةَ مَنْ لاَ يَنِي يَدْعُو صبابَتَهُ الخيَالُ إذا سَرَى
تَدْرِينَ كم مِنْ زَوْرَةٍ مَشكُورَةٍ من زَائِرٍ وَهَبَ الخَطِيرَ وما دَرَى
غابَ الوُشاةُ فباتَ يَنْهلُ مَطلَبٌ لو يَشْهَدُونَ طريقَهُ لتوَعَّرَا
كانَ الكَرى حَظَّ العُيونِ ولمْ أَخَلْ أَنَّ القلوبَ لَهُنَّ حَظٌّ في الكَرَى
دَمْعٌ تَعَلَّقَ بالشُّئُونِ فلمْ يَزَلْ بَرْحُ الغرامِ يسوقُه حتى جَرَى
قامَتْ تُمَنِّيني الوِصالَ لِتَبْتَلِي جَذَلِي وحاجَةُ أَكْمَهٍ أنْ يُبْصِرَا
مَنَّيْتِنا عَذَلاً وما أَنْهَلْتِنَا والوَقْتُ لَيسَ يُحِيلُ حَتَّى يُشْهِرا
تاللهِ لم أَرَ مُذْ رأيتُ كَلَيْلَتِي في العَلْثِ إلاَّ لَيْلَتِي في عُكْبَرَا
أَهْوَى الظلامَ وأن أُمَلَّاه وقد حَذَرَ الصباحُ نقابَهُ أَوْ أَسْفَرَا[(١)]

قال الآمدي : « وهذا لعمري القول الذي لو ورده الظمآن لروِي ، لكثرة مائه» . وأقول: إنه قد تقدم فيما أوردناه للبحتري من هذا الباب، ما هو من هذه الأبيات أنصع وأطبع ، وأحلى وأعلى ، وأعبق بالقلوب ، وأعلق بالنفوس . فأما قوله :

كانَ الكَرى حظَّ العيون ولمْ أَخَلْ أَنَّ القلوبَ لَهُنَّ حَظٌّ في الكرى

فلقائل أن يقول : أي حظّ للقلوب في الكرى لم يَخَلْه ثم وجده ؟ وأي حظ معهود للعيون من الكرى ؟ فإن هذا ليس يبين في كلامه .

---

(١) ديوانه طبع هندية (٢ : ٢١) من قصيدة يمدح بها إسحاق بن كنداج .

والجواب : أن العيون من حيث تَوَدعت وسكنت عن موالاة النظر والتحديق المتعين لها؛ كان لها بذلك حظٌ من السكرى دون القلوب . فإن خواطر القلوب وأفعالها تكون فى النوم واليقظة . وما تراد له العيون لا يكون فى اليقظة دون النوم . ولما كان الخيال فى النوم يتمثل للقلب ويُتَخيل ، فيسر القلب بذلك التخيل ، ويعتقده حقيقة ، ويلتذ به عاجلا ، وينتفع به ، كان للقلوب حظ فى السكرى لم يكن فى حسابه . وهذا تدقيق منه .

وأما قوله :

مَنَّيْتِنَا عَلَلاً وما أَنْهَلْتِنَا وَالوَقْتُ لَيْسَ يُحِيلُ حَتَّى يُشْهِرَا

فالعَلَل هو الشرب الثانى . والنَّهَل هو الشرب الأول . يعجب من أنها تمنيه الشرب الثانى، ولم يكن منها شرب أول ، ومن لم ينهل لم يُعَل ، كما أن الزمان لايحيل ، بأن يصير حولا حتى يُشْهر، بمعنى أنه يكون شهرا ، فإن الشهر قبل الحول . كما أن النَّهَل قبل العلّ . فأما قوله : «أهوى الظلام وأن أملاه » : فما زالت الشعراء تتمنى الليل والنوم فيه لطروق الطيف . واعتادنى ليلا ، فجعلوه مختصا بالاعتياد والطروق ليلا . ولم يستعمل الشعراء ذلك فى قديم ولا حديث ، إلا فيما ذكرناه . قال امرؤ القيس :

* تأوبنى دائى القديم فغلَّسا *

والشواهد على هذا أكثر من أن تحصى . والبيت الخامس عليه رونق

الإحسان ، والصنعة فيه كأنها مفقودة ؛ للطبع المتدفق ، والماء المترقرق .

وقال البحترى أيضا من قصيدة(١) :

أَمَا رَاعَكَ الحَىُّ الحِلالُ بهَجْرِهِمْ ... وَهُمْ لكَ غَدْوًا بالتَّفَرُّقِ أَروعُ

بلَى ، وخيالٌ من أُثَيْلَةَ(٢) كلَّما ... تأَوَّهْتُ مِنْ وَجْدٍ تعرَّضَ يَطْمَعُ

إذا زَوْرَةٌ مِنْهُمْ تَقَضَّتْ معَ الكَرَى ... تَنَبَّهْتُ مِنْ وَجْدٍ لَهُ أتفزَّعُ

تَرَى مُقْلَتِي ما لا تَرَى فى لقائهِ ... وتَسْمَعُ أُذْنِى رَجْعَ ما ليْسَ تسْمَعُ

ويكفيكَ مِنْ حَقٍّ تَخَيُّلُ باطِلٍ ... تُرَدُّ بهِ نَفْسُ اللَّهِيفِ فيرْجِعُ

قال الآمدى : (ولست أقول فى هذا إلا ما كان البحترى يقوله) وحدثنا به أبو على محمد بن العلاء السِّجِستانى أنه كان إذا شرب وسكر ، أنشده مثل هذا وأشباهه من شعره ، وقال : « ألا تسمعون ؟ ألا تعجبون ؟ » . ويقول : إن الأبيات ناصعة الجمال ، بعيدة المنال . وفى البيت الأخير الذى أوله :

* ويَكْفِيكَ مِنْ حَقٍّ تَخَيُّلُ باطِلٍ *

معنى جليل القدر ، ثقيل الوزن ، له غَور عميق ، وأسٌّ وثيق . وإنما أراد البحترى : أن الذى يراد من الحق من بلّ الغُلَّة ، وإمساك الرمَق ،

---

(١) يمدح بها أبا عيسى بن صاعد (ديوانه ٢ : ٨٧) .

(٢) ديوانه : قتيلة ، فى مكان : أثيلة .

وتمتع النفس ، هو فى هذا الباطل : فقد تساويا فى الغرض المقصود ، وقام الحق فيه مقام الباطل .

وقال البحترىّ أيضا(١) :

أخيالَ عَلْوَةَ كيف زُرْتَ وَعِنْدَنَا ... أَرَقٌ يُشَرِّدُ بالخيالِ الزائرِ
طيفٌ أَلَمَّ بنا ونحنُ بِمَهْمَهٍ ... قَفْرٍ(٢) يَشُقُّ عَلَى المُلِمِّ الخاطِرِ
أَفْضَى إلى شُعْثٍ تُطِيرُ كَرَاهُمُ ... رَوْحَاتُ قُودٍ كالقِسِيِّ ضوامِرِ
حتى إذا نَزَعُوا الدُّجَى وتسربَلُوا ... مِنْ نُورِ(٣) هَلْهَلَةِ الصَّباحِ النائِرِ
وَرَمَوْا إلى شُعْثِ الرِّجَالِ(٤) بِأَعْيُنٍ ... يَكْسِرْنَ مِنْ نَظَرِ النعاسِ الفاتِرِ
أَهْوَى فَأَسْعَفَ بالتَّحِيَّةِ خِلْسَةً ... والشمس تَلْمَعُ فِي جَنَاحِ الطَّائِرِ
سِرْنَا وأنْتِ مُقِيمَةٌ ولَرُبَّمَا ... كانَ المقيمُ عَلاقَةً للسَّائِرِ

قال الآمدىّ :

« وهذا والله الكلام العربىّ ، والمذهب الذى بَعُد على غيره أن يأتى بمثله » . ونقول : إن الوصف يقصر عن بلاغة هذه الأبيات وبراعتها وَسلامتها ، وإنما يعجب من طروق الخيال مع الأرق الذى يشرِّد الخيال ، فلا يكون معه فى موضع العجب . ولابد من أن يكون قد أغفى بعض الإغفاء مع طول الأرق، ومعالجة السهر ، فطرقه طيف الخيال فى ذلك

(١) من قصيدة يمدح بها محمد بن عبد الله بن طاهر (ديوانه ٢ ٤٢) .

(٢) ديوانه : مرت . (٣) ديوانه : فضل . (٤) ديوانه : شعب الرحال .

التهويم الخفيف الضعيف . فأما قوله « يشق على ألم الخاطر » ، فلم يرد خاطر القلب، لأن ذلك لا معنى له في هذا الموضع ، و إنما أراد الماشي، لأنهم يقولون خَطَر البعير يخطِر خطَرا : إذا مشى فضرب بذنبه يمينا وشمالا . والقُود الطوال . ووصف الإبل بأنها مع الطول كالقسيّ من النحول والضمر. فأما قوله «هلهلة الصباح» ، فالعرب تقول ثوب مهلهَل وهَلهال وهَلْهلة ، وهو الرقيق النسج . ومنه قيل لنسج العنكبوت الهلهل . وإنما وصف البحتريّ أوائل ضوء الصباح النائر ، فإنما أراد المنيرة، وفي ذلك لغتان نار وأنار . قال الفراء: أنار الطريق ونار . وذكر مثل ذلك يعقوب . وقال قطرُب : نارت النار وأنارت ، ونار البرق وأنار . فأما العلاقة بفتح العين فهي عَلاقة الحبّ . وبكسر العين هي : عِلاقة السوط وغيره .

قال البحتريّ أيضا[1] :

إذا ما الكَرَى أهْدَى إليّ خيالَهُ ... سَقَى قُرْبُهُ التَّبْرِيحَ أَوْ نقَع الصَّدَا
إذا انتزَعتْهُ من يَدَيَّ انْتِبَاهَةٌ ... عَدَدْتُ حَبِيباً راحَ مِنِّيَ أو غَدا
ولم أرَ مِثْلَيْنَا ولا مِثْلَ شَأْنِنَا ... نُعَذَّبُ أيقاظًا ونَنْعَمُ هُجَّدَا

أما الصَّدَى ههنا : فهو العطش ؛ ومعنى نَقَع الصدى : أي رواه . والبيت الثالث في هذه الأبيات في غاية الحسن والقوة والسلامة .

---

(١) من قصيدة يمدح بها المعتز بالله ، ويستشفعه إلى ابنه عبد الله (ديوانه ١ : ١٧٤) .

وقال البحترىّ أيضا :

أقامَتْ على الهجرانِ ما إنْ تجوزه وخالفَهَا بالوصلِ طيفٌ لها يَسْرِى
فكمْ فى الدُّجَى مِنْ فَرْحَةٍ بلقائها وكم تَرْحَةٍ بالبَيْنِ منها لدى الفَجْرِ
إذا الليلُ أعطانا من الوَصْلِ بُغْيَةً تَنَمَّتْشَنِى سَيرَ الصباحِ إلى الهجرِ
ولم أنْسَ إسعافَ الكَرى بدُنوِّها وَزَوْرَتِها بَعْدَ الهُدُوِّ وما تَدْرِى

ويتمنى تطاول الليل وتماديه ، ليتطاول ويتمادى زمان المُتعة بالطيف واللذة ، بتخيله وتمثله . وهذا باب واسع وطريق مَهْيَع .

ومن رقيق ما قيل فيه قول ابن المعتز .

أَيا(١) بَدِيعًا بِلا شَبيهِ ويا حَقِيقاً بِكُلِّ تِيهِ
وَمَنْ جفَانِى فلا أراهُ هَبْ لى رُقَادًا أَرَاكَ فِيهِ

وهذا نظير قول الشاعر :

يا نازِحًا نَزَحَتْ عَيْنِى قَطِيعَتُهُ هَبْ لى مِنَ الدَّمْعِ ما أَبكِى عَلَيْكَ بِهِ

فإن قيل إنما استوهب ابن المعتزّ من الرقاد ما هو فى يد محبوبه ، لأنه يملك هجره وبعاده فيسهر ، وليس يملك المحبوب مادة الدمع فيُسْأَل فيها . والجواب عن ذلك: أن الأمرين واحد ، لأن المعشوق يقدر على كل مايبكى به عاشقه ، ويذرى دموعه، ويجلب ماءها ويستنفده ، ويقدر على الكف

(١) ديوانه طبع مصر سنة ١٨٩١ م (١ : ١٠١) : يا بديعاً .

عن ذلك، فيبقى دموعه بكمالها، ولا يُصْفِر[1] مآقيه منها. فما سأل الشاعران إلا ما هو ممكن غير مُعْوِز.

وقال البحتري[2]:

بِتُّ أُبْدِي وَجْدًا وأَكْتُمُ وَجْدَا ... لخيالٍ قَدْ بَاتَ لي منكِ يُهْدَى
قَسَمَ الظَّنُّ فيهِ أَنَّى تَخَطَّى الرَّمْـلَ من عالجٍ وأنَّى تَهَدَّى
خَطَأً ما أَزَارَناهُ طُرُوقًا ... أم تَوَخِّيهِ للزِّيارَةِ عَمْدَا
جاءَ يسرِي فأشرقَتْ أرضُ نجدٍ ... لسُرَاهُ وواصَلَ الغيثُ نجدَا
لا يَخِيبُ البلادُ تَخطِرُ فيها ... رُسُلُ الشوقِ من خَيالات سُعْدَى
وعَدتْنا فما وَفَتْ بِوِصَالٍ ... وَوَفَتْ حينَ أَوْعَدَتْ أَنْ تَصُدَّا
قَرَّبَ الطيفُ مُنتهاها فأصْبَحْتُ حديثًا بناقِضِ العَهْدِ عَهْدَا

وقال أيضا:

مِنْكِ طَيْفٌ أَلَمَّ والأُفْقُ مَلْآ ... نُ مِنَ الْفَجْرِ واعتراضِ عَمودِه[3]
زائِرٌ، أَشْرَقَتْ لِرُؤْيَتِهِ أَغْـ ... وارُ أَرْضِ العِرَاقِ بَعْدَ نجودِه
أَرَبُ النفسِ كُلُّهُ ومتاعُ الـ ... عَيْنِ فى خَدِّهِ وفى تَوْرِيدِه
مُعْطِيًا مِنْ وصالِهِ فى كَرَى النَّوْ ... مِ الذى كان مانِعًا فى صُدُودِه
يَقَظَاتُ المُحِبِّ ساعاتُ بُوسا ... هُ ونَعْماهُ[4] عَيْشِهِ فى هُجُودِه

---

(١) يصفر: يخلى. (٢) من قصيدة يمدح بها ابن الفرات (١: ٢٠٦ ط هندية).

(٣) من قصيدة يمدح بها الخضر بن أحمد الثعلبى، ديوانه (١: ١٦٨ هندية).

(٤) الديوان: نعاه.

أما وصف خيال المحبوب بأنه يبذل فى النوم ما كان يَضِن به فى اليقظة ، و يصل فى هذه الحال بعد صدوده فى غيرها ، وأن النعيم والمنفعة فى الهجود مع طيف الخيال ، كما أن الشقاء والمضرة فى اليقظة مع هجر الحبيب وصدوده ، فهو جادة مسلوكة ، وجهة مأنوسة للشعراء ، وسيجىء في شعرى من ذلك ماسيوقف عليه بمشيئة الله . والحكم فى تجويد وتقصير ، وإحسان و إساءة ، إلى من عرف ثم أنصف .

وقال البحترى أيضا :

وما انفكَّ داعِى البَيْنِ حَتّى تزايَلَتْ ... قِبابٌ بناها حاضِرٌ وخيامُ[1]

عشيةَ مابى عن شَبيثَ تَرَحُّلٌ ... فأمْضِى ولالى فى شَبيثَ مُقامُ

فما[2] نَلْتَقِى إلاَّ عَلَى حُلْمِ هاجِدٍ ... يُحِلُّ لنا جدْواكِ وهْوَ حرامُ

إذَا ما تبادَلْنا[3] النَّفائِسَ خِلْتَنا ... من الجِدِّ أيقاظاً ونحنُ نِيامُ

قال الآمدى : « وهذا قول ليس بينه و بين القلب حجاب » ، وقد صدق فى مقالته ، وأنصف فى شَهادته . ومعنى قوله : « يحل لنا جدواك وهو حرام » : إنا نظفر فى الحلم بما كنا نُرد عنه فى اليقظة ، وننال ما كنا نُذاد عنه . فعبر عن البذل بالتحليل ، وعن المنع بالتحريم ، وهذا مليح ، ومن بارع البلاغة والفصاحة ، لأن الحظر والتحريم منع من الشيء وإن فُعِل. والتحليل بذل له وإن هُجِر. قال ـ أدام الله علوه ـ والذى أرويه : « يحل لنا جدواك وهى حرام » ، لأن الجدوى مؤنثة . وقد رواه الآمدى على

---

(١) من قصيدة يعتذر فيها إلى يعقوب بن أحمد بن صالح ديوانه (٢ : ٢٤٩ ط هندية) . (٢) ديوانه : وما . (٣) ديوانه : تباذلنا .

التذكير . وقد يجوز ذلك على المعنى ؛ لأن معنى الجدوَى هو العطاء والفضل والإحسان .

وقال البحترى[1] :

أُرَجِّمُ فى لَيلى الظنونَ وأرتجِى ... أواخرَ حُبٍّ أَخْلَفَتْنى أوائلُهْ

وليلةَ هوَّمنا على العِيسِ أرْسَلَتْ ... بِطَيفِ خيالٍ يُشْبِهُ الحقَّ باطِلُهْ

فلولا بياضُ الصُّبحِ كانَ تَشَبُّثِى ... بِعطْفَىْ غزالٍ بِتُّ وَهْناً أُغازِلُهْ

وكم مِنْ يَدٍ لليلِ عندى حميدةٍ ... وللصبحِ من خَطْبٍ تُذَمُّ غوائِلُه

قوله « يُشْبِهُ الحقَّ باطِلُهْ » من مليحِ الكلامِ ومقبوله . وقال الآمدىّ عقيب هذه الأبيات : وهذا كله إنما حسن هذا الحسن ، وقبلته النفوس ، لأنه اعتمد أن يخبر بالأمر على ما هو به ، من غير زيادة ولا نقصان . لا فصاحة لكلامه ، ولا بلاغة ولا براعة . وكم من مخبر عن الشىء على خلاف ماهو به ، لكلامه القبول ، وإلى القلوب الوصول . وهذا يدل على أن حظ الألفاظ فى الكلام الفصيح منظوما ومنثورا أقوى من حظ المعانى . وقد نبهت على ذلك فى مواضع من كلامى ، من أراد الاستقصاء وقف عليها .

---

(١) هذه الأبيات ليست فى ديوانه طبع هندية .

وقال البحترىّ أيضا[1] :

ما تقضَّى لُبانَةٌ عند لُبْنَى   والمُعَنَّى بالغانياتِ مُعَنَّى
هجرَتنا يَقْظى وَكادَتْ عَلَى مَذْ   هَبِهَا فى الصُّـدودِ تَهْجُرُ وسْنَى
بعد لأيٍ وقد تعرّضَ منها   طائفٌ[3] عرّجَتْ على الركبِ وَهْنا

ورأيت أبا القاسم الآمدىّ — مع حسن رأيه فى البحترىّ ، وميله إليه — يزعم أنه أخطأ فى قوله :

هجرَتنا يَقْظَى وكادَتْ على مذ   هبها فى الصدودِ تَهْجُرُ وَسْنَى

قال : لأن خيالها يتمثل له فى كل أحوالها ، يقظى كانت أو وسنى . قال: لـكن الجيد فى هذا المعنى قوله :

أَرُدُّ[4] دونَكِ يقظاناً ويأذَنُ لى
عليْكِ سُكْرُ الـكَرى إنْ جِئْتُ وَسْنَانَا

قال : [والذى أوقع البحترىّ فى هذا الغلط ، قول قيس بن الخَطِيم :

ما تَمْنَعِى يَقْظَى فَقَدْ تُؤْتِينَهُ   فى النوم غيرَ مُصَرَّدٍ محسوبِ

قال: وكان الأجود أن يقول ما تمنعى فى اليقظة فقد تؤتينه فى النوم.

---

(١) هذه الأبيات مطلع قصيدة مدح بها ابن الفياض (انظر ديوانه ٢ : ٢٩٥ طبع هندية) .   (٢) ديوانه : عادتها .
(٣) ديوانه : طائف طاف بى على الركب وهنا .
(٤) هذا البيت ليس فى ديوانه طبع هندية .

أى ما تمنعينه فى يقظتى فقد تؤتينه فى حال نومى ، حتى تكون اليقظة والنوم منسو بين إليه . ثم قال : إلا أنه يتسع من التأويل فى هذا لقيس ، مالا يتسع للبحترى ؛ لأن قيسا قال فقد تؤتينه نائمة . وقد يجوز أن يحمل على أنه أراد ما تمنعيننى يقظَى وأنا يقظان ، فقد تؤتينه فى النوم ، أى فى نومى . ولا يسوغ مثل هذا فى بيت البحترى ، لأنه قال وسَنَى ولم يقل فى الوسن] .

ونقول إنه قد تمكن من التأويل للبحترى فى بيته ، مالم يمكن مثله لقيس ، لأن البحترى لما قال وسنى ، أتى بلفظة تدل على حال الوسن . والحال المعهود للوسن حال يشترك الناس فيها فى النوم بالمعاد ، كما أن الحال المعهودة لليقظة حال مشتركة فى العادة ، فقوله وسنى تنبئ عن كونه هو أيضاً نائما ، وإنما أراد المقابلة بين يقظى ووسنى . وقول البحترى يقظَى : الأولَى أن يُحمل على أن المراد به أنها هجرت فى أحوال اليقظة . ومعنى يقظى يتعدى إليه . ألا ترى أن الآمدى حمل قول قيس « يقظَى » على معنى وأنا يقظان وإن تبين الوجه فيه ؟ فكيف لم يفطن لمثل ذلك فى قول البحترى ؟ وقوله « وسنَى و يقظَى » مثل قول قيس « يقظَى » . ولو مكن قيسا وزن الشعر من أن يقول «وسنى» فى مقابلة « يقظى » ، لعله ماعدل عنه إلى أن يقول فى النوم ، لأنه لم يكن عليه فى وسَنى إلا ماعليه فى يقظى ، وما يُتَأول له فى أحد الأمرين يُتَأَول بمثله فى الآخر .

فأما أبيات قيس هذه فى الطيف ، فقد سبق فيها إلى كل معنى غريب

عجيب ، وهو قدوة فى هذا المعنى لكل من تبعه تبع أثره . والأبيات :

أَنَّى سَرَبْتِ وكنتِ غيرَ سَروبِ ... وَتَقَرُّبُ الأحلامِ غيرُ قريبِ

ما تَمْنَعِي يَقْظَى فقد تُؤْتِينَهُ ... فى النوم غيرَ مُصَرَّدٍ محسوبِ

كانَ المُنَى بِلقائِها فَلَقِيتُهَا ... فلهوتُ من لَهْوِ امْرِئٍ مكذوبِ

أما قوله : « وكنتِ غيرَ سروبِ » ولم يقل : وكنت غير سار بة ؛ فله معنى عجيب : لأن السارب هو السائر نهارًا ، كما أن السارى هو السائر ليلا . ومن لم يسر نهارا مع وضوح المسالك ، والاهتداء إلى المقاصد ، والأنس بضياء النهار ، كيف يسرى فى الظلام وهو على الضدّ من هذه المعانى ؟ فالعجب منه واقع فى موقعه . وقوله « وتقرب الأحلام غير قريب » من مليح الإشارة إلى غرور الطيف ، وكذب تخييله . فأما المُصَرَّد : فهو القليل . والتَّصْرِيد : التقليل . وتحتمل لفظة محسوب شيئين : أحدهما التقليل أيضا ، لأن الشىء القليل يوصف بأنه محسوب وهذا التأويل أحد الوجوه فى قوله تعالى : « يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ » ، فكأن الشاعر أكّد قوله : « غير مُصَرَّد » بأنه أيضا غير محسوب ؛ كل ذلك لنفى التقليل . والوجه الآخر أن يكون معنى محسوب : أى متوقع منتظر ، كما يقال : لم يكن كذا وكذا فى حسابى : أى ماتوقعته ولا انتظرته . فكأنه قال : تؤتينه فى النوم غير مقلَّل ، ولا متوقَّع منتظر ، لأن زيارة الطيف فى النوم ليست مما ينتظر ويتوقع . وقوله فلقيتها : معناه : فلقيت خيالها ،

لأنه لو كان لقيها لما كان مكذوبا . وقوله : « فلهوت لهو امرئ مكذوب » من فصيح العبارة ، وأحسنها معنى .

* * *

وقال البحترى أيضا[1] :

أَمَامُعِينٌ عَلَى الشَّوْقِ الَّذِى غَرَبَتْ ... به الجوانح والبَيْنِ الذى أفدا[2]

كيف اللقاء وقد أَضْحَتْ مُخَيِّمَةً ... بالشام لا كَثَباً منها ولا صَدَدا[3]

تهاجُرٌ أَمَمٌ لا وَصْلَ يَخْلِطُهُ ... إلا تزاوُرُ طيْفَينا إِذَا هَجَدَا

وقد يُزِيرُ الكَرَى من لازيارته ... قَصْدٌ ويُدْنِى الهوى مِنْ بُعْدِ مَنْ بَعُدا

بِتْنا عَلَى رِقْبَةِ الْوَاشِينَ مُكْتَتِنَيْ ... صبابةً نتعاطَى[4] البَثَّ والكَمَدا

أَما سأَلْتَ بشخْصَيْنا هناك فقد ... غابا ، وأمَّا خيالانا فقد شَهِدا

ولم يَعُدْنِ لها طيفٌ فَيَفْجَؤنِى ... إلّا عَلَى أَبْرَحِ الْوَجْدِ الذى عَهِدَا

---

(١) هذه الأبيات من قصيدة يمدح بها الفتح بن خاقان انظر ديوانه ١ : ١٣٤ طبع هندية . (٢) أفدا : أصاب الفؤاد .

(٣) الصدد : ناحية الشىء . (٤) ديوانه : نتشاكى .

قال الآمدى : « لو كان قال : إلا تزاور طيفينا إذا هجدنا ، كان عندى أجود . فكان المعنى : إنى إذا هجدت رأيتها فى النوم . فكأنَّ نفسى ونفسها اجتمعتا ، وكذلك إذا هجدت هى ترى مثل ما رأيت ، ويكون « طيفينا » محمولا على معنى نفسينا ، لأن النفس هى التى ترى ماترى فى النوم ، وهى التى تتمثل أيضا ماتتمثله فى اليقظة . وقد يسوغ مع هذا أيضا قوله : « إذا هجدوا » : يريد النفسين ، لأن نفس الإنسان هى التى تنام ، كما قال الله تعالى : « والتى لم تمت فى منامها » . ونقول إنه لاشبهة فى أنه لو قال البحترى : « إلا تزاور طيفينا إذا هجدا » لكان صحيحا مستقيما ؛ لكن وزن الشعر لم يمكنه من ذلك ، فعدل إلى لفظ آخر ، وما أراد إلا هذا المعنى بعينه ، لأن الطيفين اللذين هما ما يتمثل فى النوم ويتخيل ، لا يوصفان بالهجود . وإنما عبر بالطيف عن صاحب الطيف ؛ وعمن يتمثل له أو منه الطيف ، وما ذلك ببعيد من الاستعارة فى منثور الكلام ، فضلا عن منظومه الذى يضيق عن الأغراض ، ويحتمل فيه مالا يحتمل فى غيره . فأما قول الآمدى : إن النفوس هى التى تجتمع وتلتقى ، ويتمثل لها ماتتمثله فى يقظة أونوم ، وأن نفس الإنسان هى التى تنام ، واستشهاده بالآية ، فما كان ينبغى له أن يخوض فيه ، ويدخل نفسه فى مثله ، فإنه ليس من عمله ؛ ولا مما له به علم ومعرفة . وترك الإنسان الدخول فيما لا يعرفه أستر عليه . والنفس عبارة فى اللغة العربية عن أشياء

كثيرة ، منها الدم ؛ ولذلك قالوا : « مالا نَفْس له سائلة ، فإنه لاينجِّس الماء إذا مات فيه[1] » ، وسميت النُّفَساء بهذا الاسم ، لأجل الدم . ويعبر بالنفس عن الذات ، يقال فعلت ذلك بنفسى ، وجاء زيد نفسه ، ونفسى تتوق إلى كذا وكذا : أى أنا تائق إليه .

والذى تهذِى به الفلاسفة من أن النفس جوهر بسيط ، وينسبون الأفعال إليها ، مما لامحصول له ، وقد بينا فساده فى مواضع كثيرة من كتبنا ، ودللنا على أن الفاعل المميز الحىّ الناطق، هو الإنسان الذى هو هذا الشخص المشاهد ، دون جزء فيه أو جوهر بسيط يتعلق به ، وليس هذا موضع بيان ذلك والكلام فيه . فقول الآمدىّ : إن النفس هى التى ترى فى اليقظة والنوم ، وهى التى تنام فى الحقيقة ، خطأ منه فاحش ، لأنه قد أضاف أفعال الحىّ الذى هو الإنسان المشاهد إلى غيره . والذى ينام على الحقيقة ويستيقظ ، هو الحى الذى هو الإنسان المشاهد . فأما قوله تعالى : « يَتَوَفَّى الأنفسَ حِين مَوتِها والتى لم تَمُتْ فى مَنامِها » ، فمعناه الصحيح: أن الله تعالى هو الذى يقبض ويجمع حركات الأحياء ، ويصرفهم فى وقت موتهم . وعبر بالنفوس عن ذوات الأحياء ، لأن تصرف الحىّ مع النوم وحركته تنقبض وتقل ، كما تنقبض حركته مع الموت . وإن كان النائم حيا ، والميت فاقدا لحياته . ثم قال تعالى: «فيمسِكُ التى قَضى عليها الموت»،

(١) هذا حديث روى عن النبى عليه الصلاة والسلام .

أى يستمر منعها عن جميع التصرف والأفعال ، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى : أى يعيد النائم فى أحوال اليقظة إلى ما كان عليه من التصرف .

* * *

وقال البحترى أيضا (١) :

طَيْفٌ تأوَّبَ مِنْ سُعْدَى فحيَّانِى ... أهْوَاهُ وَهْوَ بُعَيْدَ النَّوْمِ يَهْوَانِى

فيالها زَوْرَةً يَشْفِى الْغَلِيلُ بها ... لو أنها جَلَبَتْ يَقْظَى لِيَقْظَانِ

مَهْزوزَةٌ إنْ مَشَتْ لم تُلْفَ هِزَّتُهَا ... فى الخيزُرَانِ ولم توجَدْ مع البانِ

يُدْنِى الكرى شَخْصَهَا مِنِّى وَيُبْعِدُنِى ... هَجْرٌ فَيَبْعُدُ مِنِّى شَخْصُهَا الدَّانِى

أما قوله : « أهواه وهو بعيد النوم يهوانى » فإنما يريد أننى أهواه على الحقيقة ، وهو بعيد النوم يتخيل لى شخصه وطيفه وزيارته لى ، فكأنه يهوانى . والبيت الثالث فى غاية الملاحة والرشاقة . وفى البيت الرابع رواية تخالف ماحكيناه ، وهى :

يُدْنِى الكرى شخصَها مِنِّى وَيُذْهِبُنِى ... وجدٌ فَيَبْعُدُ مِنِّى شخصُها الدَّانِى

(١) من قصيدة يمدح بها إسماعيل بن بلبل (ديوانه ٢ : ٢٩٨ طبع هندية) .

ومعنى الرواية الأولى أن هجرها لى مبعد فى الحقيقة عن لقائها ، ونأى بشخصها عنى ، وإن خَيَّل السكرى لى الدنوَّ إليها .

والرواية الثانية معناها : أننى أتخيل فى النوم دنوَّ شخصها منى ، فإذا انتبهتُ بالوجد، وجدت شخصها بعيدا ، فكأنَّ الاستيقاظ هو الذى أبعد شخصها ، كما أن السكرى أدناه ، وجوَّدَ العتابىّ فى قوله :

ولما استَقَرَّ النومُ فى جَفْنِ عَيْنِهِ ... وماتَتْ له أوصالُه والمفاصِلُ
رَمَت غمراتُ الموتِ رَمْياً بِنَفْسِها ... ولليلِ سِتْرٌ حولها مُتهَادِلُ
فَأَهْدى إلينا الليلُ شَخْصًا تناسبَتْ ... إلى الحُسنِ منه صورةٌ وشمائلُ
فباتَتْ غماماتُ النعيمِ تَجودُنا ... لها دِيَمٌ حتى الصباحِ ووابِلُ

وأحسن كل الإحسان مسلمُ بن الوليد فى قوله :

وليلةَ باتَ اللهوُ إلا بقيــةٌ ... تدارَكَها طيفٌ أَلَمَّ مُسَـلِّما
جمعنــا معاذيرَ العتابِ برقدَةٍ ... مَشتْ بَيْنَنَا تَطْوِى الحديثَ المُكَتَّما

وأحسن النمر بن تَوْلَب فى قوله :

تأوَّبَ صُحْبَتِى وَهُمُ هُجودٌ ... خيالٌ طارِقٌ من أُمِّ حِصْنِ
أَلَمْ ترها إليكَ اليومَ جاءتْ ... بملءِ العَيْنِ من كرمٍ وحُسْنِ

والناس يستحسنون قديماً لمالك بن أسماء ، وقد رويت لغيره ، قوله :

عَنَّتْ لِعَيْنَىَ ليلى عِندَ مَسْرَاها ... فبتُّ أَرْشُفُ يُمْنَاها ويُسْرَاها

وقلتُ أهلاً وسهلاً إذ هُدِيتَ لنا ... إن كنتَ تمثالَها أو كنتَ إيّاها

ومما استحسن لدعبل بن عليّ الخزاعيّ، واستُلْطِف معناه، قوله:

سرى طيفُ سُعْدَى حِينَ حانَ هُبوبُ

وَقَضَّيْتُ شَوْقِي حِــينَ كَادَ يَثُوبُ

ولم أرَ مَطْرُوقاً يَحُــلُّ بِطَارِقٍ ... ولا طارِقاً يَقْرِي المُنَى وَيُثِيبُ

وقال البحتريّ أيضا [1]:

أَمَّا الخيــالُ فإنَّهُ لم يَطْرُقِ ... إلّا بِعقْبِ تَشَوُّفٍ وَتَشَوُّقِ

قَدْ زَارَ مِنْ بُعْدٍ فَنَهْنَهَ مِنْ جَوًى ... ضَرِمٍ وَسكَّنَ من فؤادٍ مُقْلَقِ [2]

ولرُبَّمَا كَانَ الــكَرَى سبَبًا لنَا ... بَعْدَ الفِراقِ إلى اللّقاءِ فَنَلْتَقِي

أما البيت الثالث، فله ماشاء من قبول، وحلاوة وطلاوة.

وقال البحتريّ أيضا [3]:

مِثالكِ من طيفِ الخيالِ المعاوِدِ ... أَلَمَّ بنَا مِنْ أُفْقِهِ المتباعِد

يُحَيِّ هُجُوداً مُنْتَشِينَ مِنَ الــكَرَى ... وما نَفْعُ إهداءِ السلامِ لهاجِدِ

---

(١) من قصيدة يمدح بها المعتز بالله (ديوانه ٢ : ١٤٢ طبع هندية).

(٢) ديوانه : قد زار من بعد فسكن من حشا.

(٣) من قصيدة يمدح بها الفتح بن خاقان وابنه (ديوانه ١ : ١٣٥ طبع هندية).

إذا هى مالَتْ لِلْعِناقِ تعطّفَتْ تعَطُّفَ أُمْلُودٍ مِنَ الْبانِ مَائِدِ
إذا وصلَتْنَا لم تَصِلْ عَنْ تعمُّدٍ وإنْ هجرَتْ أبْدَتْ لَنَاهَجْرَ عامِدِ

وقال أيضا [1] :

خَطَرَتْ فى النَّوْمِ منها خَطْرَةٌ خَطْرَةَ البَرْقِ بَدَا ثمَّ اضْمَحَلْ
أىُّ زَوْرٍ لَكَ لوْ قَصْدًا سَرَى وَمُلِمٍّ بكَ [2] لو حَقًّا فَعَلْ
يَتَرَاءَى والكَرَى فى مُقْلَتِى فإذَا فارقَهَا النَّوْمُ بَطَلْ
قمرٌ أتبعْتُهُ مِنْ كَلَفٍ نَظَرَ الصَّبِّ بِهِ حَتَّى أفَلْ

ولهذه الأبيات الملاحة كلها ، والحلاوة جميعها ، وللبيتين الأولين منها الفضل الظاهر عليها ، ومارأينا الآمدىّ طرب لما أوردها ، وماشرع فى شىء من مدحها ، وقد يفعل ذلك فيما هو دونها أومثلها ، وهى جديرة بالطرب ، حقيقة بالعجب .

وقال أيضا :

[3] طرَقَتْنا فى الخيالاتِ [4] نُعْمُ [5] أُمُّ بَكْرٍ فأَسْعَفَتْ أُمُّ بَكْرِ
فى بُدُوٍّ من الشَّبابِ عليها ورَقٌ [6] من جديده المسبَكِرِ [7]

---

(١) من قصيدة يمدح بها الطائى (ديوانه ٢ : ١٨١ هندية) .
(٢) ديوانه : منك . (٣) من قصيدة يمدح بها محمد بن بدر (ديوانه ١ : ١٩ هندية) . (٤) ديوانه : وفى . (٥) ديوانه : نعمى .
(٦) ورق الشباب : نضرته وحداثته . (٧) المسبكر : الشاب التام المعتدل .

كَمُلَتْ أَرْبَعٌ لها بَعْدَ عَشْرٍ ... وَمَدَى البَدْرِ أَرْبَعٌ بعْدَ عَشْرِ
خلفَتْ[1] دَارَها بِحَزْوَى فباتَتْ ... بيْنَ سَحْرَىْ شَرْوَى الضَّجيعِ ونَحْرِى
لو دَرَتْ ما أَتَتْ لمَنَّتْ بِنُجْحٍ ... لم يُكَدَّرْ ونائلٍ غَيْرِ نَزْرِ

ومعنى البيت الأول ، أنها طرقتنا فى غير الخيال وفى الخيال ، ولولا ذلك لم يكن للواو العاطفة معنى ، وَالْمُسْبَكِرُّ : التام الكامل .

وقال أيضا[2] :

قُلْ للخيالِ إذا أَرَدْتَ فعاوِدِ ... تُدْنى المسافةَ مِن هوًى مُتباعِدِ
فلأَنْتَ فى نَفْسِى وَإِنْ عَنَّيْتَنِى ... و بعَثْتَ لِى الأشجانَ أَحْلَى وَافِدِ
باتَتْ بأحلامِ النيامِ تعُرُّنِى ... رُودُ التَّثَنِّى كالقَضِيبِ المائدِ
ضاهتْ بِحُلَتِها تَلَهُّبَ خدِّها ... حتى غَدَتْ فى أُرْجُوَانٍ جامِدِ[3]

وضع البحترى قوله : « رُود التثنى » فى غير موضعه ، لأَن الرُّودة من النساء السريعة الشباب ، وهذا وصف لا يليق بالتثنى ، وإنما يليق بالمرأة ذات التثنى . وعذر البحترى فى ذلك من وجهين :

---

(١) ديوانه : خالفت .

(٢) من قصيدة يمدح بها صاعد بن مخلد (ديوانه ١ : ١٥٨ طبع هندية) .

(٣) ديوانه: جاسد . تقول جد به الدم يجسد : إذا ألصق به فهو جاسد ، والمجسد الأحمر .

أحدهما : أنه استعار للتثني وصف صاحبه للمقاربة .

والآخر: أن سرعة الشباب لا تكون إلا مع النَّعمة والرطوبة ، فحمل على المعنى ، وأراد أنها ناعمة التثنى ، أو رطبة التعطف .

وقال أيضاً[(١)] :

بِعَيْنَيْكِ إِعْوَالِي وطُولُ شَهِيقِي ... وَإِخْفاقُ عَيْنِي مِنْ كَرًى وَخُفُوقِي
على أَنَّ تَهْوِيمًا إذا عارَضَ اطَّبَى[(٢)] ... سُرَى طائِفٍ[(٣)] فى غيرِ وقتِ طُروقِ
سَرَى جائبًا للخَرْقِ يَخْشَى ولم يكُنْ ... مَلِيًّا بإِسْرَاءٍ وجَوْبِ خُرُوقِ
فبَاتَ يُعَاطِينِى عَلَى رِقْبَةِ العِدَا ... وَيَمْزُجُ رِيقًا مِنْ جَناهُ بِرِيقِى
وَبِتُّ أَشابُ المِسْكَ مِنْهُ وَأَتَّقِى ... رُدَاعَ[(٤)] عبيرٍ صائِكٍ[(٥)] وَخَلوقِ
أَرَى كَذِبَ الأَحلامِ صِدْقًا وَكم صَغَتْ ... إلى خبرٍ أُذْنَاىَ غـيرِ صَدُوقِ
وما كانَ مِن حَقٍّ وبَطْلٍ فقد شَفَى ... حرارةَ متبولٍ وخَبْـلَ مَشُوقِ

وقال أيضاً[(٦)] :

أَحْبِبْ إِلَىَّ بِطَيْفِ سُعْدَى الآتى ... وطُرُوقِهِ فى أعجَبِ الأوقاتِ

---

(١) من قصيدة يمدح بها أحمد بن طولون (ديوانه ٢ : ١٤٠) .

(٢) اطبى : صرف . (٣) ديوانه : طارق .

(٤) رداع : أثر الطيب في الجسم . (٥) صائك : لاصق ، من صاك به الطيب ، يصيك : أى لصق به .

(٦) من قصيدة يفتخر ، ويعاتب قوما من أهل بلده ، (ديوانه ١ : ٩٦) .

أَنَّى اهْتَدَيْتِ لِمُحْرِمِينَ تَصَوَّبُوا ... لِسُفُوحِ مَكَّةَ مِنْ رُبَا عَرَفَاتِ

ذَكَّرْتِنَا عَهْدَ الشَّآمِ وعَيْشَنَا ... بَيْنَ القِبَابِ البِيضِ والهَضَبَاتِ

إذْ أَنْتِ شَكلُ مُخَالِفٍ وَمُوَافِقٍ ... والدَّهْرُ فيكِ مُمَانِعٌ ومُوَاتِى

لولا مُكاثَرَةُ الخطوبِ وَنحتُها ... من جانِبىَّ لَكُنْتِ من حاجاتى

وقال أيضا(١) :

إذا نَسِيتُ هَوَى لُبْنَى أشادَ بِهِ ... طيفٌ سَرَى فى سَوَادِ اللَّيْلِ إذْ جَنَحَا

دَنَا إلَىَّ عَلَى بُعْدٍ فأَرَّقَنِى ... حتَّى تَبَلَّجَ ضَوْءُ الصُّبْحِ فاتَّضَحَا

عَجِبْتُ مِنْهُ تَخَطَّى القاعَ مِنْ إضَمٍ ... وجاوزَ الرَّمْلَ مِنْ خَبْتٍ وما بَرِحا

قال الآمدىّ : كيف يقول تخطَّى القاع، وجاوز الرمل، ثم يقول ومابرحا، ثم يقول: كأنه أراد مابرح على الحقيقة، ثم سأل نفسه، فقال: فإن قيل هى التى لم تبرح على الحقيقة، وأما خيالها إذا طرق وهى بعيدة، فقد برح. وأجاب بأن خيالها إنما هو صورتها التى تتصور فى النفس، والصورة أيضا غير بارحة على الحقيقة. فقولهم طرق الخيال، وزار الخيال : مجاز. ويجوز أن يكون قوله ومابرحا : أى مابرحت هى، وجعل خيالها بدلا منها، ووضعه فى موضعها، لأنه هى. ألا ترى إلى قول جرير :

---

(١) من قصيدة يمدح بها الفتح بن خاقان (ديوانه ١ : ١١٤) .

طَرَقَتْكَ صائدَةُ القلوبِ وليْسَ ذَا　　وَقْتُ الزِّيارَةِ فارْجِعى بسلامِ (١)

قال الآمدىّ : وقيل إنه أراد خيالها فوضع ذلك فى موضعه ، لأن خيالها ليس هو شيئا غير صورتها . قال : وقد استجفى الناس قوله : « فارجعى بسلام » ، وإنما قال هذا ، لأنه عاتب عليها ، ألا ترى إلى قوله بعد هذا :

لو كانَ عهدُكِ كالذى عاهَدْتِنا (٢)　　لوَصَلْتِ ذاكَ فكانَ غَيْرَ رِمامِ

قال : وطرفة أول من طرقه ، فقال :

فقُلْ لِخَيالِ الحَنْظَلِيَّةِ يَنْقَلِبْ　　إليها فإنى واصِلٌ حَبْلَ مَنْ وَصَلْ

قال : وهذا أعذر من جرير ، لأنه قال : فإنى واصل حبل من وصل . فدلّ على أن الحنظلية هجرته وواصلته غيرها ، فطرد خيالها . ونقول إن لبيت البحترى معنى ماوقع للآمدىّ ، وهو أشبه بالصواب مما ذكره ، وهو أنه لما قال : عجبت منه تخطّى القاع ، وجاوز الرمل ، وذلك كله لم يكن ، وإنما تشبه له وتخيل إليه مالا حقيقة له ، أراد أن تبين هذه الإضافة غيرحقيقية ، فكان له أن يقول : وما تخطّى ، ولاجاوز الرمل ، كما قال فى موضع آخر : « أنّى اهتديت وما اهتديت » ، فعدل إلى أن قال : « وما برحا » لأن من لم يبرح مكانه ماتخطى ولا جاوز ، فكأنه استعار الطيف الذى

(١) من قصيدة يرد بها على الفرزدق (ديوانه ص ٥٥١ ط الصاوي) .
(٢) ديوانه ص ٥٥١ : حدثتنا .

ما تخطّى الوصف له بأنه مابرح ، وإن كان لايليق به من كل الوجود ، لأن الذى لم يبرح مافارق مكانه ، ولا زال من موضعه . وهذا وصف لايليق بالطيف ، لكن مالم يبرح ماتخطّى . والطيف ما تخطى ، فكأنه مابرح .
فأما قوله : إن الصورة أيضا غير بارحة فكلام غير صحيح ، لأن الطيف الذى يتصوّر ويتمثل ، ليس بشىء يشار إليه ، فتثبت له البراح ، أو تنفى عنه .
وقوله : يجوز أن يريد بقوله مابرحا : أى مابرحت هى ، ووضع خيالها فى موضعها قريب .

فأما بيت جرير الذى أنشده فالأولى فى معناه : أن يريد أنها طرقته بنفسها زائرة على الحقيقة لاطيفها . فقال لها عتبا عليها ، أو خوفا من وضع الزيارة فى غير موضعها : ارجعى بسلام ، لأنه قد قال فى البيت : وليس ذا حين الزيارة . ومن خاف الرقباء ، ولم يأمن على محبوبه من الأقوال الخارجة ، والتهم الفادحة ، استعفى مما يطرق ذلك ويثمره . وليس فى لفظ البيت مايدل على اختصاص بالخيال ، لأن الطروق الذى هو الزيارة ليلا ، يكون لغير الخيال ، كما يوصف به الخيال ، وهو فى غير الخيال حقيقة ، وفى الخيال مجاز . وحمل الكلام — إذا أمكن — على الحقيقة أولى .

وأى معنى لقوله : « وليس ذا حين الزيارة » إن كان عنى الطيف؟ وله كل معنى إذا أراد به الزيارة الحقيقية . والذى قاله الآمدىّ قد قاله قوم ، وغيره أصوب منه وأقرب . فأما بيت طرفة ، فهو صريح فى طرد الخيال

وقد بيّن عن العلة فى طرده له ، وليس كبيت جرير الذى هو بغير الخيال أشبه ، وفيه أوقع .

وقال البحترى أيضا[1] :

أمنكِ تأوّبُ الطيفِ الطروبِ حبيبٌ جاءَ يهدِى مِنْ حَبيبِ
تخطّى رِقْبَةَ الواشِينَ وَهْناً وبُعْدَ مسافةِ الحَزْنِ[2] المَجُوبِ
يُكاذِبُنى وأَصْدُقُهُ وِدَادًا ومِنْ كَلَفٍ مُصادَقَةُ الكَذُوبِ

وقال أيضا[3] :

عَجَبًا لهجرِكِ قبلَ تَشْتيتِ النّوَى منّا وَوَصْلُكِ فى التّنائى أَعْجَبُ
أَنّى اهتديتِ وما اهتديتِ لمُعْمَدٍ فى لَيْلِ عانَةَ والثُّرَيّا تَجْنُبُ
أَتركْتِهِ بالخَيْلِ ثم طلبتِهِ بخليجِ عانةَ حِينَ عَزَّ المطلَبُ

وقال أيضا[4] :

إذا قلتُ قَضَّيْتُ الصَّبابةَ رَدَّها خيالٌ مُلِمٌّ مِنْ حَبِيبٍ مُجانِبِ
يَجُودُ وقد ضَنَّ الأُلَى شَغَفِى بِهِمْ ويدنو وقد شَطَّتْ ديارُ الحبائِبِ
تُرِيكَ أحلامُ النِّيامِ وَبينَنَا مَفاوِزُ يَسْتَفْرِغْنَ جُهْدَ الرَّكائِبِ

---

(١) من قصيدة يمدح بها هيثم بن هارون بن المعمر (ديوانه ١ : ٨٤) .
(٢) ديوانه : الحرق . (٣) هذه الأبيات ليست فى ديوانه طبع هندية .
(٤) من قصيدة يمدح بها المعتز (ديوانه ١ : ٩٠) .

وقال أيضا(١) :

سرَى الطيفُ مِنْ ظَمياء وَهْنًا فمَرْحَبًا
وأهلاً بِمَسْرَى طيفِ ظمياءَ مِنْ مَسْرَى

ألمَّ بِسَفْرٍ لاغبِينَ وَأينُقٍ
ذَرَعْن بهم(٢) من أذْرِعاتٍ إلى بُصْرَى

وقال أيضا(٣) :

قد كانَ طيفُك مرَّةً يُغْرَى بِي يعتادُ رَكْبِي طارِقًا وَرِكابِي
فالآنَ مايزدارُ غيرَ مَغَبَّةٍ ومنَ الصدودِ زيارَةُ الإغْبابِ

قوله « ومن الصدود زيارة الإغباب » : من ألطف الكلام ، وأشده وصولا إلى كل قلب .

وقال أيضا(٤) :

ألَمَّتْ وهل إلمامُها لكَ نافعُ وزارَتْ خيالًا والعُيونُ هواجعُ
بِنَفْسِيَ مَنْ تنأى وَيَدْنُو ادِّكارُها ويَبْذُلُ عنها طيفُها وتُمانِعُ

---

(١) من قصيدة يمدح بها خارويه (ديوانه ١ : ١٢) .
(٢) ديوانه : بنا .
(٣) من قصيدة يمدح بها إبراهيم بن المدبر (ديوانه ١ : ١٤) .
(٤) من قصيدة يمدح بها الفتح بن خاقان (ديوانه ٢ : ٧٦) .

وقال أيضا[1] :

طَوَّلَ هذا الليلَ أنْ لا كَرَى ... يُرِيكَ مَنْ تَهْوَى وأنْ لَا هُجوعْ

يَمضِي هزيعٌ لم يَطُفْ طائفٌ ... مِنْ عِنْدِ أسماءَ ويأتى هَزِيعْ

وقال أيضا[2] :

وَيَهِيجُنِى أنْ لا يَزالُ يَزُورُنى ... مِنْهُ خيالٌ ما يَغِبُّ مُطِيفُهُ

وقال أيضا[3] :

يَهْدِى الخيالُ لنا ذِكْرَى إذا طافا ... وافَى يُخادِعُنا والصُّبْحُ قد وَافَى

تَصْدُقُ[4] المنعَ سَلْمَى حِينَ نسألُها ... نَيْلاً وتَكْذِبُنَا وصْلاً[5] وإسْعافا

وقال أيضا[6] :

وزَوْرُ خَيالٍ بَعْدَ وَهْنٍ أَلَمَّ بى ... وأحشاؤُهُ منْ فَرْطِ خِيفتهِ تَهْفُو

إن قيل كيف يليق هـذا الوصف بالخيال ، قلنا : المعنى أن أحشاء صاحب هذا الطيف، لو زارنى هذه الزيارة ، تهفو من الخيفة ، فأجرى على الطيف ماهو لصاحب الطيف، وهذا توسع يُحتمل للشعراء، ويحسن منهم.

وقال أيضا[7] :

قمرٌ فى دُجُنَّةِ الليــلِ يُوفِى ... أمْ خيالٌ مِنْ عندِ سُعْدَى يُوَافِى

---

(١) من قصيدة يمدح بها الشاه بن ميكال (٢ : ٩٥) .

(٢) يمدح الفتح بن خاقان (ديوانه ٢ : ١١٤) وفيه : منها خيال .

(٣) يمدح الطائى (٢ : ١٠٦) .

(٤) ديوانه : تصدقنا المنع سلمى .

(٥) ديوانه : بذلا .

(٦) ليس فى ديوانه طبع هندية .

(٧) يمدح أحمد بن الإسكافى (ديوانه ٢ : ١٠٨) .

مُسْعِفٌ بالذى مَتَى سُئِلَتْهُ عَدِمَتْ حَظَّها مِنَ الإسْعافِ

وقال أيضا(١) :

مَرْحَبًا بالخيالِ مِنْكِ المُطِيفِ فى شموسٍ لم تَتَّصِلْ بكُسُوفِ
كيفَ زُرْتُمْ ودونَكُمْ رَمْلُ يَبْرِيـ ـنَ فَفَلْجٌ والحَىُّ غيْرُ خَلُوفِ
ورِداء الظلماء فى صِبْغِه الأسـ ـودِ والصُّبْحُ من وراءِ سُجوفِ
زَوْرَةٌ سكَّنَتْ غَلِيلاً وقد ها جَتْ غَلِيلاً من هائمٍ مَشْغُوف

وقال أيضا(٢) :

خيالُ ماوِيَّةَ المطيفُ أَرَّقَ عينًا لها وكيفُ
أكثرَ لوْمِى عَلَى هواها ركبٌ على دِمْنَةٍ وقوفُ

وقال أيضا(٣) :

وطيفٌ سرَى حتى تناولَ فِتْيَةً سرَوْا يَحمِلُونَ(٤) الليلَ حتَّى تمزَّقا

وقال أيضا(٥) :

تَبْهَشُ(٦) النَّفسُ إلى زَوْرِ الكَرَى ومتاعُ النَّفْسِ فى زَوْرِ الأَرَقْ

---

(١) يمدح إبراهيم بن الحسن بن سهل (ديوانه ٢ : ١٠٣) .
(٢) يمدح عبدون بن مخلد (ديوانه ٢ : ١١٥) .
(٣) يمدح يوسف بن محمد (ديوانه ٢ : ١٢٩) . (٤) ديوانه : يلبسون .
(٥) يمدح صاعدا (ديوانه ٢ : ١٣١) .
(٦) تبهش : ترتاح له ، وتخف إليه .

وقال أيضاً(١) :

أهلاً بذلِكمُ الخيالِ المقبلِ فعلَ الذى نَهْواهُ أم لمْ يَفْعلِ

وقال أيضاً(٢) :

فلا عهدَ إلّا أن يُعاوِدَ ذكرُها ولا وصلَ إلا أن يَزُورَ خيالُها
وقد كنتُ أرجو وصلَها بعدهجرِها فقد بانَ منّي هجرُها ووصالُها

وقال أيضاً(٣) :

إذا أرسلَتْ طيفاً يذَكِّرُنى الجوَى رَدَدْتُ إليْها بالنجاحِ رَسولَها

وقال أيضاً :

أَجِدَّكَ إنَّ لمّاتِ الخيالِ لَمُذْكِرَتى بأيّامِ الوِصالِ(٤)
تُؤَرِّقُنى إذا الرُّقباءُ ناموا أَناةُ الخَطوِ فاتِنةُ الدّلالِ

وقال أيضاً(٥) :

هذا الحبيبُ فمرْحَبًا بخيالِهِ أنّى اهتَدَى والليلُ فى سِرْبالِهِ
بل كيفَ زَارَ ودُونَهُ مجهولةٌ مِنْ سَبْسَبٍ قَفْرٍ تَمُورُ(٦) بآلِهِ

---

(١) ليس فى ديوانه طبع هندية . (٢) يمدح المتوكل (ديوانه ٢ : ١٧٩) .
(٣) يمدح إسماعيل بن بلبل (ديوانه ٢ : ١٩٧) .
(٤) ليست فى ديوانه طبع هندية .
(٥) يمدح أبا نهشل (ديوانه ٢ : ١٩٠) . (٦) ديوانه : يمور .

سارٍ تجاوَزَ مِنْ شمائق عَالِجٍ بُعْدَ المَدَى مِنْ سَهْلِهِ وَجِبالِهِ
حَتَّى تَقَنَّصَهُ الكَرَى لِمُتَيَّمٍ لَوْلاَ الكَرَى لشَفاهُ مِنْ بَلْبالِهِ

يريد : لولا أن زيارته فى الكرى ، وهى تخييل وتمثيل ، لشفته هذه الزيارة من بَلباله ، لأنها إذا لم تكن فى الكرى كانت حقيقة ، فانتفع بها، ووقعت فى موقعها .

وقال أيضا(١) :

زائرٌ فى المنَام ِ يَهْجُرُ يقظا نَ ويدنو مع المنام ِ وصالُهْ
طارِقٌ أرهقَ الزيارةَ والصبحُ مُطِلٌّ أو قد دنا إطلالُهْ

وقال أيضا(٢) :

وخيالٍ ألمَّ منها عَلَى سا عةِ هجرٍ فقلتُ أهلاً وسهلا

وقال أيضا(٣) :

يُهَيِّجُ لى طيفُ الخيالِ صَبابةً فللهِ ما طيفُ الخيالِ المهيِّجُ

وقال أيضا(٤) :

أعادَ شكْوَى مِن الطَّيفِ الذى اعْتادَا رُشْدًا تَوَخَّيْتَ أَمْ غَيًّا وإِفْسادَا

---

(١) يمدح أبا بكر الكاتب (ديوانه ٢ : ٢٢٠) .
(٢) يمدح المعتز بالله (ديوانه ٢ : ١٦٩) .
(٣) يمدح إسماعيل بن بلبل (ديوانه ١ : ١٠٥) .
(٤) يمدح ابن الفياض (ديوانه ١ : ٢٠٢) وفيه : إفنادا فى موضع : إفسادا .

أَلَمَّ بِي وبياضُ الصُّبْحِ مُنْتَظَرٌ قد رَقَّ عَنْهُ سوادُ الليلِ أوْ كادا

وقال أيضا[١] :

أَلَمَّ بِي طيفُها وَهْنًا فأَعْوَزَهُ عِنْدِي وجودُ كرًى بالدَّمْعِ مَطْرُودِ

وقال أيضا[٢] :

خَطِيَّةُ لَيْلَةٍ تمْضِي وَلَمَّا يُؤَرِّقْنِي خيالٌ مِنْ سُعادِ
وَهَجْرُ القُرْبِ منها كانَ أَشْهَى إلى المشْتاقِ مِنْ وَصْلِ البِعادِ

وقال أيضا[٣] :

يَبِيتُ خيالُها منها بَدِيلاً وَيَقْرُبُ ذِكْرُها عِنْدَ البِعادِ

وقال أيضا[٤] :

وَسَرَى خيالُكِ طَارِقًا وَعَلَى اللِّوَى عِيسٌ مُطَلَّحَةٌ وَرَكْبٌ هَاجِدُ

وقال أيضا[٥] :

بَعُدَتْ دَارُها فما مِنْ تلاقٍ غيرُ طيفٍ يزورُنى فى الهجُودِ

---

(١) من قصيدة يمدح بها أحمد بن عبد الوهاب (ديوانه ١ : ١٧٣) .
(٢) يمدح الفتح بن خاقان (ديوانه ١ : ١٣٨) .
(٣) يمدح عبد الله بن يحيى بن خاقان (ديوانه ١ : ١٦١) .
(٤) من قصيدة يمدح بها الحسن بن مخلد (ديوانه ١ : ١٤٢) .
(٥) يمدح المعتز بالله (ديوانه ١ : ١٩٣) .

أَتُرَاها دامَتْ عَلَى العَهْدِ أَمْ مِنْ　　عادَةِ الغانياتِ نَقْضُ العُهودِ

وقال أيضا[1] :

عجبًا لطيفِ خيالِكِ المتعاهِدِ　　ولوِصالِكِ المتقارِبِ المتباعِدِ

يدنو إذا بَعُد المَزارُ وَيَنْثَنِي　　في القربِ ليس أخو الهوى بمُعانِدِ

ماذا أرادَ مُلِمُّ طيفِكِ في الكرى　　من واغِلٍ بين الحوادثِ شاردِ

مُتَحَيِّرٍ يَغْدُو بعزمٍ قائمٍ　　في كلِّ نائبةٍ وجَـدٍّ قاعِدِ

وهذه الأبيات حسنة ، مايشينها إلّا عجز البيت الثانى ، فى قوله :

ليس أخو الهوى بمعاند

وطرح هذا البيت ، من أوله إلى هذا الموضع من آخره ، طرح صحيح مليح ، فليته ختمه بمثل مابدأ به . وللناظم سكرات وغَمَرات يدخل عليه فيهن من الشبه مالا يكاد ينحصر وينضبط .

وقال أيضا[2] :

فإنْ بَخِلْتِ فلا وَصْلٌ ولا عِدَةٌ[3]

غيرُ اهتداء خيالٍ منك زَوّارِ

---

(١) يمدح الخضر بن أحمد (ديوانه ١ : ١٦٨) .

(٢) يمدح أبا صالح ويمدح المستعين (ديوانه ١ : ٢٢٢) .

(٣) ديوانه : صلة .

لاشكلَ للقمرِ السَّارى علىَّ فما بيَّنْتُ طلْعَتَهُ مِنْ طيفِكِ السَّارى
إذْ ضارعَ الشمسَ فى حُسْنٍ وفى مِقَةٍ وَطالَعَ البدرَ فى وَقْتٍ وَمقدارِ
ليلٌ تَقَضَّى وماأدْرَ كْتُ مأرَبتى من اللِّقاءِ وما قَضَّيْتُ أوْطارِى

وقال أيضا[1] :

تَقَضَّى الصِّبا إلا خيالًا يعودُنى به ذُو دَلالٍ أحورُ الطرفِ فاترُهْ
يَجوبُ سوادَ الليلِ من عندِ مُرْهَفٍ ضعيفِ قَوامِ الخصرِ سودٍ غدائرُهْ
فيذْكِرُنى العهدَ[2] القديمَ وَليلةً لدى سَمُراتِ الجِزْعِ إذْ نامَ سامِرُهْ

وقال أيضا[3] :

من أجلِ طيفِك عادَ مُظْلمُ ليلهِ أهْوَى[4] إليهِ مِنْ مُضىءِ نهارِهِ

وقال أيضا[5] :

سَرَى منخيالِ المالِكيَّةِ ماسَرَى فَتيَّمَ ذا القلْبَ المُعَنَّى وَأسْهرَا
دُنُوًّا بأحلامِ الكَرى مِنْ بَعيدَةٍ تُسِىءُ بنَا فِعلاً وَتَحْسُنُ مَنظرَا
ومَا قَرُبَتْ بالطيفِ إلاّ لِتَنْتَوِى ومَا وَصَلَتْ فى النَّوْمِ إلّا لِتَهْجُرا

---

(١) يمدح يوسف بن محمد (ديوانه ١ : ١١) . (٢) ديوانه : الوصل .
(٣) يمدح أبا عامر بن أحمد (ديوانه ٢ : ٨) . (٤) ديوانه : أحلى .
(٥) يمدح المعتز بالله (ديوانه ٢ : ٥٠) .

وقال أيضا[١] :

لا يَني يُوفِدُ الحبيبَ إلينا كَذِبُ الطَّيْفِ سارِياً وغرورُهْ
زائرًا فى المنَامِ أسألُ هَلْ أطْ رقُهُ فى منامِهِ أوْ أزُورُهْ

وقال أيضا[٢] :

هَجَرَتْ وَطيفُ خيالِها لم يَهْجُرِ وَنأَتْ بحاجَةِ مُغْرَمٍ لم يُقْصِرِ

وقال أيضا[٣] :

أطلبُ النومَ كى يعودَ غِرارُهْ بخيالٍ يحلو لدَىَّ اغـترارُهْ
كم تلاقٍ أرَتْـكَهُ مِنْ قَرِيبٍ صِلَةُ الطَّيفِ طارِقًا وازدِيارُهْ

وقال أيضا[٤] :

بَرَّحَ بى الطيفُ الذى يَسْرِى وَزَادَنى سُـكرًا إلى سُكْرِى
وَنشوةُ الحُبِّ إذا أفرَطَتْ بالصَّبِّ جازَتْ نَشوَةَ الْخَمْرِ

وقال أيضا[٥] :

ما قلتُ للطيفِ المُسَلِّمِ لا تَعُدْ تَغشَى وَلا كَفـكَفْتُ حامِلَ كاسِ

---

(١) يمدح ابن ميكال (ديوانه ٢ : ٣٠) .
(٢) يمدح المستعين (ديوانه ١ : ٢٢٣) .
(٣) يمدح ابن ميكال (ديوانه ٢ : ٢٨) . (٤) يمدح المعتز بالله (ديوانه٢ : ٤٠)
(٥) يمدح أبا الحسن بن عبد الملك (ديوانه ٢ : ٥٩) .

وقال أيضا[١] :

فلم يَبْقَ من معروفِها غيرُ طائفٍ يُلِمُّ بنا وَهْنًا إذَا الرَّكْبُ هوَّما
يكادُ وَميضُ البرقِ عندَ اعتراضِهِ يُضِيء خيالاً جاءَ مِنهَا مُسَلِّما

وقال أيضا[٢] :

أكانَ الصِّبا إلاَّ خيالاً مُسَلِّما أقامَ كَرَجْعِ الطَّرْفِ حَتَّى تَصَرَّما

وقال أيضا[٣] :

إنَّ طيفاً يزُورُنى فى المنامِ لَخَلِيٌّ من لَوْعَتى وَغرَامِى
غادَةٌ بتُّ أَحمِلُ اللَّوْمَ فيها وعناه المحبِّ طولُ الملامِ

وقال أيضا[٤] :

وإذا ما أَبَى الحبيبُ مُواتا تِى تبَلَّغتُ بالخيَالِ المُلِمِّ

وقال أيضا[٥] :

فكم ليلةٍ أهدتْ إلىَّ خيالَهَا وسهلُ الفَيافِى دُونَهَا وحُزُومُهَا[٦]

---

(١) يمدح الفتح بن خاقان (ديوانه ٢ : ٢٢٧) .
(٢) يمدح الهيثم الغنوى (ديوانه ٢ : ٢٣٣) .
(٣) يمدح المتوكل (ديوانه ٢ : ٢٦٨) .
(٤) يمدح عبدون بن مخلد (ديوانه ٢ : ٢٤٥) .
(٥) يمدح المهتدى بالله (ديوانه ٢ : ٢٣٠) .
(٦) الحزم : ما كان من الأرض أغلظ من الحزن .

تَطيبُ بمسراها البلادُ إذا سَرَتْ ... فينعَمُ رَيّاها ويصْفو نَسِيمُها

وقال أيضا[١] :

إذا زَرودُ دَنَتْ منّا صرائمُها ... فلا محالةَ مِنْ زَوْرٍ يوافينا

بِذْناجُنوحًا عَلَى كُثْبِ اللّوَى وأبَى ... طيفُ لِظَمْياء إلاّ أنْ يُحَيِّينا

ومما يدخل فى هذا الباب بعض الدخول، أن البحترىّ شبه زائرا زاره بالخيال سَرَى وبه خيفة أن لا يكون لزيارته حقيقة ، فقال[٢] :

وزَورٍ أتانى طارِقًا فَحسِبْتُهُ ... خيالًا أَتَى من آخرِ الليلِ يَطْرُقُ

أُقَسِّمُ فيه الظَّنَّ طورًا مُكَذِّبًا ... به أنَّهُ حَقٌّ ، وَطَوْرًا أُصَدِّقُ

أَخافُ وأرجُو بُطْلَ ظَنِّي وصِدْقَهُ ... فلله شَكِّي حينَ أرْجُو وَأفْرَقُ

وقال فى هذا المعنى[٣] :

حَبيبٌ سرَى فى خُفْيَةٍ وَعَلَى ذُعْرِ ... يَجوبُ الدُّجى حتى التَقَيْنَا عَلَى قَدْرِ

تَشَكَّكْتُ فيه من سُرُوري وخِلْتُهُ ... خيالًا أَتَى فى النَّوْمِ من طَيْفِهِ يَسْرِى

انقضى ما للبحترىّ .

وهذا ابتداء ما أخرجته من شعر أخى رضى الله عنه ، ونَضَّر وجهه !

---

(١) هذه الأبيات ليست فى ديوانه طبع هندية .

(٢) يمدح المعتز بالله (ديوانه ٢ : ١٢٤) . (٣) يمدح المعتز بالله (ديوانه ٢ : ٢) .

[ما أخرجه المؤلف من شعر أخيه الشريف ، في طيف الخيال]

قال رضي الله عنه ، وهي قطعة مفردة :

إنّ طيفَ الخيالِ زار طُروقا   والمطايا بينَ القَنانِ وشَغْبِ (1)
فوقَ أكوارِهنَّ أنضاءُ شَوْقٍ   طَرَقوا بالغرامِ دونَ الرَّكْبِ
كلّمَا أنَّتِ المَطيُّ مِن الإعْـياء أنُّوا منَ الجَوَى وَالْكَرْبِ
زَارَنى واصلاً عَلَى غَيْرِ وَعْدِ   وانثنى هاجرًا عَلَى غيرِ ذَنْبِ
كانَ قَلْبى إليـه رائدَ عَيْنى   فعلى العَـيْنِ مِنَّةٌ لِلقَلْبِ
بتُّ ألهو بناعمِ الجِيدِ غَضٍّ   وفَمٍ باردِ المُجَاجـةِ عَذْبِ
بلَّ وَجْدِى ومَن رأى اليومَ قَبلى   ناقعًا للغليلِ من غيرِ شُرْبِ
سامِحًا لى عَلَى البعادِ بنَيْـلٍ   كان يَلْويهِ فى زَمانِ القُرْبِ
كان عندىَ أن الغُرورَ لطَرْفى   فإذَا ذلك الغـرورُ لِقَلْبى

---

(1) انظر ديوان الشريف الرضى (١ : ١٣٩) بيروت . وقد وردت كلمة شغب بالعين المهملة فى ديوانه المخطوط . انظر ورقة رقم ١٥٩ مخطوط رقم ١٤٠ أدب بدار الكتب . والصواب : بالغين ، وهو منهل بين المدينة والشام .

القَنان وشَغْب : موضعان معروفان . ومعنى كان قلبي إليه رائد عيني: أن التخيل والتصور إنما هو للقلب ، فكأنّ القلب خَيَّل للعين أنها ترى حبيبها ، فالمِنة له عليها .

والبيت الأخير : معناه أنى كنت أضيف الغرور إلى طَرفى ، وفى النوم صار الغرور لقلبي ، لأنه خَيَّل لى ما لا حقيقة له .

ولهذا المعنى نبأ لا بد من أن أذكره ، وهو أننى لما كنت قلت فى جملة قصيدة:

وعهدى بتمويه عيْنِ المحبِّ ... تنمُّ عَلَى قلبـهِ الطّائِرِ
فلما التقَيْنَا برغْمِ الرُّقا ... دِ مَوَّهَ قلْبِى عَلَى ناظرى

وذلك على ما أظن فى سنة نيف وثمانين وثلاث مِئة، تداول أهل الأدب إنشاد هذه الأبيات ، واستغربوا هذا المعنى ، وشهدوا بأنه مستجدٌّ ، غير مسبوق إليه ، ولا متعرَّض له .

وسمع أخى ، رضى الله عنه ، هذه الأبيات ، لأنه قلَّما كان يخرج لى شىء من الشعر، إلّا ويسمعه وينشده ، ولا يخرج له ــ رحمه الله ــ طولَ حياته إلّا ماينشدنيه ، فشهد لهذا المعنى بأنه مبتكَر مختَرع ، وأنه مستحسن مستعذَب . ولم أسمع له ــ رحمه الله ــ طول حياته فى هذا المعنى شيئا . ولما تصفحت شعره ــ رضى الله عنه ــ لإخراج مايتعلق بالطيف فى هذا الوقت، وهو سنة نيف وعشرين وأربع مِئة ، وجدت هذه الأبيات البائية ملحقة بخطه

ـ رحمه الله ـ فى الجزء الثانى من شعره ، فى حاشية ، فنقلتها عنه كما وجب ، لأنها بخطّه الذى لاأشك فيه .

ولست أعلم كيف جرت الحال فى هذا المعنى ، وهل قصد ، رحمه الله ، إلى نظمه على علم ، حتى لايخلوَ من شعره هذا المعنى المستغرب المستعذب ، أو أُنسِيَ ـ رحمه الله ـ سماعه له ، وقذف به خاطره ، وجرى على هاجسه ، فأثبته تقديرا على أنه مبدع له ، لامتبع فيه . فكثيرا مايلحق الشعراء ذلك ، فيواردون فى بعض المعانى المسبوق إليها ، وقد كانوا سمعوها فأُنسوها . فالخواطر مشتركة ، والمعانى معرَّضة لكل خاطر ، جارية على كل هاجس . وكيف جرى الأمر ، وعلى أى القسمين كان ، فإن العنصر واحد ، والمعدن واحد ، وأينا سبق إلى معنى ، فالآخر بالنَّجْر والسِّنْخ إليه سابق ، و به عالق. وفى البيت الذى أوله :

كان قلبى إليه رائد عينى

إلمام بهذا المعنى ، لأنه أضاف الخيال إلى القلب ، لأنه فيه يتخيل ، وله يتمثل ، والبيت الأخير الذى أوله :

كان عندى أن الغرور لطرفى

هو الذى استوفى فيه المعنى الذى فى شعرى ، لأنه أضاف الغرور فى النوم إلى القلب ، بعد أن كان مضافا إلى العين . ومع هذا التشاكل والتجانس ،

لما نظمته أنا مزية ظاهرة ، لأنني قلت : إن من العادة أن تَغُرَّ عين المحب قلبه . وفى الخيال غَرَّ قلبُه عينه . وهذا التفصيل لايوجد إلا فى أبياتى .

وله من أثناء قصيدة :

طرقَ الخيالُ ببَطْنِ وَجْرَةَ بعْدَ ما زَعَمَ العواذِلُ أَنّهُ لا يَطْرُقُ[1]

أَتحنُّنًا بعد الرُّقادِ وَقَسْوةً أيامَ أُصْفِيكِ الودادَ وَأُمْذَقُ[2]

أَنّى اهْتَدَيْتِ وما اهتديتِ و بَيْننا سُورٌ عَلَيَّ من الظلامِ وخَنْدَقُ

هذه أبيات ناصعة رائقة، عليها مَسْحة من أعرابية ، وعَبْقة من بدوية . ومعنى زَعْم العواذل أنه لا يُطْرق : أنهم ظنوا ذلك واعتقدوه .

وله ابتداء قصيدة :

أراقِبُ من طيفِ الخيالِ وِصالَا ويأبَى خيالٌ أنْ يَزُورَ خيالَا[3]

وهل أبقتِ الأشجانُ إلا مُمثَّلاً تُعَاوِدُه أيدى الضَّنَى وَمِثالَا

أَلمَّ بنا والليلُ قد شابَ رأسُه وقد مَيَّلَ الغَرْبُ النُّجُومَ وَمالَا

وَأنّى اهتدَى فى مُدْلَهِمِّ ظلامِهِ يَخُوضُ بحارًا أو يَجُوبُ رِمالَا

تأَوَّبَ من نحْوِ الأحبَّةِ طاردًا رُقادى وما أسْدَى إلَيَّ نوالَا

---

(١) ديوانه (٢ : ٥٤٢) بيروت . (٢) أمذق : لم تخلص لى الود .

(٣) من قصيدة يمدح بها أبا الفتح عثمان بن جنى (ديوانه ٢ : ٦٤٠) بيروت .

أوائلَ مَسَّ الغُمضُ أجفانَ مقلتى ... كما قاربَ القومُ العطاشُ صِلالَا

الصِّلال : جمع صَلّة ، وهى أرض مُطِرت بين أرضين لم تُمطرا :

وما كانَ إلا عارِضاً من طَاعةٍ ... أزالَ الكرَى عن مقلتىَّ وزالَا

أما قوله رحمه الله :

* ويأبى خيالٌ أن يزور خيالَا *

فإنما أراد أن الخيال الذى يطرق فى النوم ، ويتمثل للراقد ، يأبى أن يزور النحيل المدنَف ، الذى قد صار خيالا ، من النحافة والنحول . وإنما سُمِّى الناحل الذى قد ذاب جسمه ، وذهب لحمه ، وغاضت نضارته ، وذهبت غَضاضته ، خيالا ، تشبيها بالخيال الذى يتمثل للنائم ، وهو مما لا حقيقة له ولا وِجدان ، فأجرى من زاد نحولُه ، فصار عند الرُّؤية غير متحقَّق ولا متيقَّن ، مُجرى الخيال فى النوم ، الذى لا يتحقق ، وإنما يُتخيل ، ومازالت الشعراء تصف الناحل بأنه خيال ، لا يُحَسُّ ولا يُدرك ولا يُعلم .

ولعمرو بن قميئة ، ويقال إنه أول من نطق بوصف الطَّيف .

نأتْكَ أُمامَةُ إلّا سُؤالَا ... وَإلّا خيالًا يُوافِى خيَالا

تُوافِى مَعَ اللّيْلِ مُسْتَوْطِنًا ... وَتأْبَى مَعَ الصُّبْحِ إلاّ زِيالَا

خيالٌ يُخَيِّلُ لى نَيْلَها ... ولوْ قَدَرَتْ لمْ يُخَيِّلْ نَوالَا

فانظر إلى هذا الطبع المتدفق، والنسج المطرد المتسق ، من أعرابى قحّ ، قيل إنه مفتتح لوصف الطيف . وكأنه لانطباع سبكه ، وجودة وضعه ، قد قال فى هذا المعنى الكثير ، ونظم منه الغزير ، وقلب ظاهره وباطنه ، وباشر أوله وآخره ، وكأنه قد سمع فيه من أقوال المحسنين ، وإجادة المجيدين ، ماسلك منهجه ، وأخرج كلامه مُخرجَه . ولكن الله تعالى أودع هؤلاء القوم من أسرار الفصاحة ، وهداهم من مسالك البلاغة ، إلى ماهو ظاهر باهر . ولهذا كان القرآن معجزا ، وعَلَما على النبوّة ، لأنه أعجز قوما هذه صفاتهم ونعوتهم .

ونظير قول ابن قميئة قولُ المجنون :

وإنّى لأَستَغْشِي زمانىَ نَعْسةً   لعلَّ خيالاً منكِ يَلقَى خياليا

وإنما أراد: لعل خيالكِ الذى هو طيف يلقانى . ووصف نفسه بأنه خيال لنحوله ، وخفاء شخصه . لاوجه لقول المجنون إلا ذلك .

ومن مليح ماقيل فى ذلك قول الشاعر :

وذُبتُ حتى صِرْتُ لو زُجَّ بي   فى مُقلةِ الوَسْنانِ لم يَنتَبِهْ

فأما قوله رحمه الله : « وأنّى اهتدى فى مدلهمّ ظلامه » إلى تمام البيت ، فما زالت الشعراء فى الشعر القديم والحديث ، تتعجب من اهتداء الطيف إلى المَضاجع ، وخفىّ المواضع ، مع الظلام المضلل للسُّراة ، والبعد

القاطع للبُغاة . وهذه جادة مسلوكة ، وطريق مَهْيَع ، وما ورد فى ذلك أكثر من أن يُحصَى .

ومن قديم الشعر فى ذلك قول الشاعر :

فقلتُ لها أنَّى اهتديتِ لفتْيةٍ أناخوا بجَعْجاعٍ قلائصَ سُهَّما
فقالَتْ كذاكَ العاشِقون ومَنْ يَخَفْ عيونَ الأعادِى يجعلِ اللَّيلَ سُلَّما

وقال النظَّار الفقْعسىّ ، وأحسنَ كل الإحسان :

أنَّى اهتدتْ لمناخِنا جُمْلُ ومِنَ الكَرى لعُيونِنا كُحْلُ
طرَقَتْ أخا سفَرٍ وناجِيَةً خَرْقاءَ يَغْرَقُ بَيْنَها الرَّحْلُ
فى مَهْمَهٍ هَجَعَ الدَّلِيلُ بهِ وتعلَّلتْ بِصَرِيفِها البُزْلُ
وكأنّ أحْدَثَ مَنْ أَلَمَّ بهِ دَرَجَتْ عَلَى آثارِهِ النَّمْلُ

وقال عَبيد بن الأبرص :

طافَ الخيالُ علينا ليلةَ الوادى منْ أُمِّ عمرٍو ولم يُلْمِمْ بميعادِ
أنَّى اهتديتِ لركْبٍ طالَ حَبسُهُمُ فى سَبْسَبٍ بين دَكْدَاكٍ(١) وأعقادِ

وأخبرنا أبو عُبيدالله محمد بن عِمران المرزُبانيّ ، قال: أخبرنى محمد بن يحيى ، قال : أخبرنا محمد بن زكريا الغلابىّ ، قال : قرأت على العباسة بنت السَّيد ابن محمد الحميرىّ ، لأبيها :

لِعَلْوَةَ زارَ الزائِرُ المتأوِّبُ ومِن دونِ مَسْراها الصِّفاحُ فكبكَبُ
تسدَّتْ إلينا بعد هَدْوٍ ودونَها طَوِيلُ الذُّرا مِن بَطْنِ نَخْلَةَ أغْلَبُ

---

(١) أرض فيها غلظ . والأعقاد : جمع عقد بالتحريك ، وعقد بكسر القاف ، وهو الرمل المتجعد .

فقلتُ لهـا أنّى اهتديتِ ودوننا قِفارٌ تَرامَى بالرَّكائبِ سَبْسَبُ
مَخُوفُ الردَى قَفْرٌ كأنَّ نَعامَهُ عَذارَي عليهنَّ المُلاءُ المُجوَّبُ

وبهذا الإسناد، قال : قرأت عليها لأبيها :

طافَ الخيالُ علينا مِنكِ هَنادَا وَهْنا فأوْرَثَنا هَمًّا وتَسْهادَا
أنّى اهْتَدَيْتِ لِرَكْبٍ بَيْنَ أوْدِيَةٍ لم تَسْتَدِلِّى ولم تَسْتَحْقِبِى زَادَا
ياأحسَنَ الناسِ مِنْ قَرْنٍ إلى قَدَمٍ
هامَ الفؤادُ بكُمْ بل طارَ أوْ كادا
ماهبَّتِ الرِّيحُ لى مِنْ نَحْوِ أرْضِكُمُ
إلّا تَحَيَّرَ ماءُ الْعَيْنِ أوْ جَادا

معنى قوله تحيَّر : أنه وقف فى العين، وهى مُطْفَحَة به لايجرى . ونظير ذلك قول البحترىّ :

دَمْعٌ تَحيَّرَ فى الجُفونِ فلمْ يزَلْ بَرْحُ الغرامِ يَسُوقُهُ حتَّى جرَى

وبالإسناد المتقدم قال : قرأت عليها لأبيها :

طافَ مِنْ هِنْدٍ خيالٌ فَذَعَرْ وَرَمَى عَيْنِى بدمعٍ وَسَهَرْ
قُلْتُ لمـا أنْ دَنا منِّى لهُ مَرْحَبًا أَلْفًا بِسَمْعِى وَالْبَصَرْ
هِنْدُ مِنْ أينَ تخطَّيْتِ إلى رَكْبِ أطْلاحٍ مَطِيًّا قَدْ حَسَرْ[1]
تحْتَ لَيلٍ ساقِطٍ أكنافُهُ رَحْلُ صَرْعَى مِنْ كَلالٍ وَسَهرْ

---

(١) حسر البعير : أعيا وتعب من طول السفر .

صَادَتِ القلْبَ ولم تَعْمِدْ له … بشَنِيتِ النَّبْتِ عذبٍ ذى أُشُرْ

وهذا الرجل، أعنى السَّيِّدَ الحميرى، قوى الطبع ، جزْل اللفظ ، سليم التصرف والتقلب .

وقال البحترى :

أَنَّى اهْتَدَيْتِ وما اهْتَدَيْتِ لِمُعْمَدِ … فى ليــلِ عانَةَ والثُّرَيَّا تَجْنُبُ

ما أملح ماقيل فى هذا المعنى ! لأنه أثبت الاهتداء، وما اهتديت: تنبيها على أن ذلك التخيل باطل ، والتصور محال . فزاد علىّ من تعجبـه من الاهتداء بقوله : « وما اهتديتِ » . وهذا المعنى يجىء فى الشعر كثيرا ، وفى شعرى خاصة .

ولى :

وَكَيْفَ اهْتَدَى وَالْقَاعُ بَيْنِى وَ بَيْنَهُ … وَلَمَّاعَةُ الْقَطْرَيْنِ مَنَّاعَةُ القَطْرْ

ولى أيضا :

أَنَّى اهْتَدَيْتِ وكيفَ زُرْتِ و بَيْنَنَا … دُونَ الزِّيارَةِ مَرْبَخٌ وزَرُودُ ؟!

و إنما تعجب الشعراء من اهتداء الطيف، وتخلصه إلى المضايق ، وخفىّ المسالك ، لأنهم فرضوا ز يارته ز يارة حقيقية ، وطروقا صحيحا ، فتعجبوا مما يتعجب من مثله فى ذلك ، من طىّ البعد فى أقصر زمان . ومن الاهتداء بغير هاد ولامرشد ، مع تراكم الظُّلَم ، وتشابه الطرق ، وفقد الظهر . ومن فرض شيئا أجرى أوصافه له على مافرضه ، دون ماهو عليه فى نفسه .

وأما قوله ، رحمه الله :

وما كانَ إلاّ عارِضًا مِنْ طَماعَةٍ أزَالَ الكَرَى عَنْ مُقْلَتَىَّ وَزالا

فما زالت الشعراء فى القديم والحديث تصف الطيف بأنه طَمَع كاذب، وظنٌّ باطل، وظل زائل، ويتصرفون فى ذلك أحسن تصرف، ويتقلبون أملح تقلب، قال الفرزدق:

لَعَمْرِى لقَدْ نَبَّهْتِ ياهِنْدُ مَيِّتًا قَتيلَ كَرًى من حيثُ أمْسَيتِ نائيا
فطافَتْ بأطلاحٍ وطلْحَى كأنَّما سُقُوا بِجِمامِ الموْتِ للموْتِ ساقِيا
فباتَتْ بنا ضَيْفًا دَخِيلاً وَلاَ أرَى سِوَى حُلُمٍ جاءَتْ به الرِّيحُ سارِيا
وكُنْتُ إذا ماالرِّيحُ جاءتْ بِنَشْرِها إلَيَّ سَقَتْنِي ثُمَّ عادَتْ بِدائيا

ولقيس أيضا:

إنّ التى طرَقَتْكَ بيْنَ رَكائبٍ تمْشِى بِمِزْهَرِها وَأنْتَ حَرَامُ
باتَتْ تُعلِّلُنا وتَحْسِبُ أننا فى ذَاكَ أيْقاظٌ ونحْنُ نِيامُ
حتى إذا انصَدَعَ الصَّبَاحُ لناظِرٍ فإذَا وَذلكَ بيْنَنا أحلامُ

نظيرُ قوله:

... ... وتَحْسِبُ أنَّنَا فى ذاكَ أيقاظٌ ونحن نِيامُ

قول البحترىّ:

إذاما تبادَلْنا النفائِسَ خِلتُنا مِن الجدِّ أيْقاظًا ونحْنُ نِيامُ

وقال بعض بنى عُقيل:

أما مِنْ ليالِي الدَّهْرِ إلَّا يُلِمُّ بي خيالُكِ إلّا ليْلَةً لا أنامُها

والأقرع بن معاذ :

لقَدْ طرَقَتْنَا أُمُّ عُثمانَ بعْدَ مَا هَوَى النَّجْمُ والسَّارِي إلَيَّ حبِيبُ

فَحَيَّتْ فَحَيَّاهَا فَهَبَّ فَحَلَّقَتْ مَعَ النَّجْمِ ، رُؤْيَا في المَنَامِ كَذُوبُ

وَللحمدوىّ وهو كثير من مثله ، وروى أنه لعبد الصمد بن المعذل :

لَمْ أَنَلْهُ فَنِلْتُهُ بِالأمَانِي في منَامِي سِرًّا مِنَ الهِجْرَانِ

وَاصَلَ الْحُلْمَ بَيْنَنَا بَعْدَ هَجْرٍ فَاجْتَمَعْنَا وَنَحْنُ مُفْتَرِقَانِ

غَيْرَ أَنَّ الأَرْوَاحَ خَافَتْ رَقِيبًا فطَوَتْ سِرَّها عَنِ الأبْدَانِ

مَنْظَرٌ كانَ لَذَّةَ الْقَلْبِ إلّا أنَّهُ مَنْظَرٌ بغَيْرِ عِيَانِ

وأحسن ذوالرمة فى قوله :

إذَا نحْنُ عرَّسْنَا بأَرْضٍ سَرَى لنَا هَوًى لَبَّسَتْهُ بالقُلُوبِ اللَّوَابِسُ

نأَتْ دَارُ مَيٍّ أَنْ تُزَارَ وَزَوْرُهَا إذَا مَا دَجَا الإظْلامُ مِنَّا وَسَاوِسُ

ولى فى وصف الخيال بأنه باطل، ومحال زائل :

زِيارَةُ الطَّيْفِ ضَرْبٌ مِنْ قَطِيعَتِهِ وَوَصْلُ مَنْ لا تَرَاهُ الْعَيْنُ هِجْرَانُ

وسيجىء هذا البيت فيما أورده من شعرى ؛ إن شاء الله تعالى .

ولى أيضا فى هذا المعنى :

أَفَقْتُ فلَمْ يَحْصُلْ عَلَيَّ مِنَ الَّذِي خُدِعْتُ بِهِ إلاَّ ظُنُونٌ أُجِيلُهَا

ولى فى الطيف أيضا :

إنَّمَا الطَّيْـــفُ كَلَفْظٍ فارغٍ ما فيـــهِ مَعْنَى

ولى فى الطيف أيضا :

فَمَا نَحْنُ إلاَّ فى إسَارِ عَدَامَةٍ وَعِنْدَ كَرَانَا أَنَّ ذَاكَ وُجُودُ

المعنى كثير. وسيجىء فى مواضعه بعون الله تعالى. وإنما أشرنا هاهنا إلى القليل منه.

وله من أثناء قصيدة(١) :

أَلَمَّ خَيَالُ الْعامِرِيَّةِ بَعْدَ مَا تَبَطَّنَنَا جَفْنٌ مِنَ اللَّيْلِ أَوْطَفُ

يُحَيِّى طِلاحًا حِينَ هَمُّوا بِوَقْعَةٍ تَهَاوَوْا عَلَى الأَذْقَانِ مِمَّا تَعَسَّفُوا

وَقِيذِينَ قَدْ مَالَ النُّعَاسُ بِهَامِهِمْ كَمَا أَرْعَشَتْ أَيْدِى الْمَعَاطِينِ قَرْقَفُ

هذه أبيات واصلة إلى القلوب بغير استئذان، لعذوبة مسمعها، والأوطف : المسترخى. وإنما يعنى شيوع الليل وشموله. والطلاح : المُعْيون الكالُّون من شدة السفر.

وله وهو ابتداء قصيدة(٢) :

ماعِنْدَ عَيْنِكَ فى الخَيَالِ الزَّائِرِ أَطُرُوقُ زَوْرٍ أَمْ طِمَاعَةُ خاطِرِ

بَاتَ الْكَرَى عِنْدِى يُزَوِّرُ زَوْرَةً من قاطِعٍ نَائِى الدِّيَارِ مُهاجِرِ

وله من قصيدة(٣) :

أَمِنْكِ الخيالُ الطَّارِقِى بَعْدَ هَجْعَةٍ يُعَاطِى جَوَى الظَّمآنِ مُبْتَسِمًا بَرْدَا

---

(١) يفتخر بآبائه (ديوانه : ٥٢٤) بيروت .

(٢) فى الفخر (ديوانه : ٣٦٩) بيروت. (٣) من قصيدة فى ديوانه ص٣٠٧ ط بيروت

دَنَا مِنْ أَعالِي الرَّقْمَتَيْنِ وَما دَنَا ... وَصدّ وَقَدْ وَلَّى الظّلامُ وَماصَدَّا
وَمِنْ عَجَبٍ رِيٌّ وما نقعَ الصَّدَى ... وَعَـدَّى لهُ مَنَّا عَلَىَّ وما اعْتَدَّا
أساءَ لَيَالِي القُرْبِ نَأْياً وَهِجْرَةً ... وَأَسْدَى عَلَى بُعْدٍ مِنَ الدَّارِ مَاأَسْدَى

وله من قصيدة(١) :

مَالِذَا الزَّوْرِ مَا يُغِبُّ مِنَ الرَّمْـــلِ طُرُوقاً فِى مَضْجَعٍ قَدْ أَقَضَّا
مُهْدِياً لِي مِنْ طِيبِ أَرْوَاحِ نَجْدٍ ... مَا يُدَاوِى نُـكْسَ الْعَلِيلِ الْمُنْضَى
لمْ يكُنْ غَيْرَ خَطْرَةِ الْبَرْقِ، مازَوّ ... دَ عَـيْنَ الْمَشُوقِ إِلَّا وَمَضَا
قادَهُ الغُمْضُ مِنْ زَرُودَ فلَمّـا ... زَارَ أَنْبَى عَنْ مُقْلَتَىَّ الْغُمْضَا

يريد أنه لما تصرم وتقضّى، لم أنم شوقا إليه، وتلهفا عليه، فالغُمض جالب له، وهو مشرِّد لما جلبه وأحضره .

وله من قصيدة(٢) :

وَزَائِرٍ زَارَ عَلَى نأيهِ ... بَعْـــدَ الأَسَى عَادَ بَعيـدَ الْغرامْ
أَمَنْزِلٌ عِنْدَ عَقِيقِ الْحِمَى ... وَمَضْجَعٌ عِنْدِى بأَعْلَى الشّآمْ
زِيَارَةٌ زَوّرَها خاطِرى ... ما أَقْنَعَ النَّفْسَ بزُوْرِ الْمَنامْ !
خَدَائِعٌ أُغْضِى عَلَى عِلْمِهَا ... لَعَلّهَا تَنْقَعُ هذَا الأُوَامْ

---

(١) فى الفخر (ديوانه : ٤٣٩) .

(٢) فى وصف جارية (ديوانه ٢ : ٧٥٦) .

وله من جملة قصيدة(١) :

يَا حَبَّذَا مِنْكِ خَيَالٌ سَرَى ‏ ‏ فَدَلَّهُ الشَّوْقُ عَلَى مَضْجَعِى

بَاتَ يُعَاطِينِى جَنَى ظَلْمِهِ ‏ ‏ وَبِتُّ ظَمْآنَ وَلَمْ أَنْقَعِ

مُعَانِقاً كَانَ عِنَاقِى لَهُ ‏ ‏ وَرَاءَ أَحْشَائِىَ وَالأَضْلُعِ

عاقَرَنى يَشْرَبُ مِنْ مُهْجَتِى ‏ ‏ رِيًّا وَيَسْقِينِىَ مِنْ أَدْمُعِى

معنى قوله رحمه الله : « فدله الشوق على مضجَعِى » يريد شوقى إليه، لاشوقه إلىّ، لأن المحب الكَلِف بمحبوبه، لفرط وجده وكَلَفه، يتخيَّلُ له فى المنام محبوبُه، ويتمثل له حضورُه، فلهذا أضاف اهتداءه لمضجعه إلى شوقه. ومعنى قوله رحمه الله: «معانقاً كان عناقى له»: يريد: أننى تخيلت بقلبى، وجرى على اعتقادى وأنا نائم، أننى معانق له، فكان عناقى له من حيث تخيله بقلبى، كأنه فى أحشائى، ووراء أضلعى. والعناق المعتاد الحقيقىّ إنما هو بظاهر الأحشاء والأضلع.

انقضى ما للأخى رضى الله عنه .

---

(١) يمدح بهاء الدولة (ديوانه ٢ : ٤٥٣) بيروت .

[ما أخرجه المؤلف من شعره هو فى طيف الخيال]

وهذا ما أخرجته من ديوان شعرى :

لى من أول قصيدة أولها :

لو لم تعاجله النوى لتحيَّرا

أَهْلاً بطيفِ خيالِ مانِعةٍ لنا يَقْظَى وَمُفْضِلَةٍ علَيْنا فى الكَرَى
ما كَانَ أَنْعَمَنا بها مِنْ زَوْرَةٍ لَوْ باعدَتْ وَقْتَ الْوُرُودِ المَصْدَرَا

أردت فى الكرى منى لا غير ، لأخرج من ضيق العذر الذى اتفق للبحترىّ فى قوله : «تهجر وَسْنَى» . وليكن عذر قيس بن الخَطيم فى قوله : « تؤتينه فى النوم » هو عذر لقولى : « مفضلة علينا فى الكرى » . وقد تقدم كلامى فى ذلك .

ولى من قصيدة أولها :

حُيِّيتَ يارَبْعَ اللِّوَى من مَرْبَعِ
أَحْبِبْ إِلَىَّ وَقد تَغَشَّى ناظِرِى
وَسَنُ الكَرَى بالطَّيْفِ يَطْرُقُ مَضْجَعِى

مازالَ يخدَعُنِى بأَسبابِ الكَرَى حتى خشِيتُ بأَنهُ حَقًّا مَعِى
ولقَدْ عَجِبْتُ عَلَى المسافَةِ بَيْنَنَا كيفَ اهْتَدَى مِنْ غَيْرِ هَادٍ مَوْضِعِى
أَفْضَى إِلَى شُعْثٍ لَقُوا هاماتِهِمْ لما سُقُوا خَمْرَ الكَرَى بالأَذْرُعِ
هَجَعُوا قليلاً ثمَّ زَعْزَعَ نَوْمَهُمْ غِبَّ السُّرَى داعى الصَّباحِ المُسْمِعِ

إنما أضفت خديعة الطيف إلى الـكرَى ، لأنه لولا النوم وأسبابه ، ماتخيل الطيف ولا تمثَّل . و إنما قلت داعى الصباح المسمع ، لأنه ليس كل داع مُسْمِعًا ولا مجابا . ولما كان الناس يستيقظون و يُنْشَرُون عند الصبح ، جعلنا داعيَه مُسْمِعا .

ولى من قصيدة أولها :

ألا حبذا زمن الحاجرِ

وَزَورٍ تخَطَّى جَنوبَ المَلاَ   فنادَيْتُ أَهْلاً بذَا الزَّائرِ
أتاني هُدُوًّا وَعَيْنُ الرَّقيـ   ـبِ مطرُوفَةٌ بالـكَرَى الغامرِ
فأَعْجِبْ بهِ يُسْعِفُ الهاجِريـ   ـنَ وتُحْرَمُهُ مُقْلَةُ السَّاهرِ
وعَهْدِي بِتَمْوِيهِ عَيْنِ المُحِبِّ   تَنِمُّ عَلَى قَلْبِهِ الطَّائرِ
فلمَّا التَقَيْنَا بِرَغْمِ الرُّقَا   دِ مَوَّهَ قَلْبِي عَلَى نَاظِرِي

الملا : الأرض الواسعة . ولما كانت طَرْفة العين تحجُز عن إبصارها ، وكان الـكرى أيضا كذلك ، جعلت عين الرقيب من حيث منعها النوم عن الرؤية ، كأنها به مطروفة . والعادة أن عين المحبِّ تُمَوِّه على قلبه ، حتى يستحسن ما ليس بحسن ، أو ما لم يبلغ الغاية التى تخَيَّلها أو اعتقدها . وفى النوم انقلبت هذه العادة ، وصار القلب يُخَيِّل أن العين ترى ما ليس تراه على الحقيقة .

فإن قيل : التخيل والاعتقاد إنما هو بالقلب ، فى نوم أو يقظة ، ولاحظَّ للعين فيه فى الحالين . فالجواب أن الأمر على ذلك ، لـكن العين فى اليقظة تكون سببا لتخيل القلب فَرْط حسن بعض الأشخاص ، و إن لم

يكن كذلك ، فأضيف التمويه إليها ، لأنها كالسبب فيه . وفي النوم يعتقد النائم بقلبه ، ويتخيل أنه يرى بعينه ما ليس يراه على الحقيقة ، فصار القلب سببا لتخيل شيء يضاف إلى العين، من رؤية ما ليس يراه ، فكأن التمويه هاهنا من القلب على العين ، وليس يحتمل الشعر هذه المحاسبة والمناقشة ، والإشارة فيه تكفي . وقد قصصنا خبر هذه الأبيات فيما أخرجناه لأخي رحمه الله .

ولي أيضا :

أَمِنكِ سَرَى طيفٌ وقد كادَ لا يَسْرِي
ونحْنُ جميعاً هاجِعُونَ عَلَى الْغَمْرِ

تَعَجَّبْتُ مِنْهُ كيْفَ أمَّ ركابَنَا ... وَأَرْحُلَنَا بَيْنَ الرِّحَالِ وَمَا يَدْرِي

وكَيْفَ اهتَدَى وَالْقَاعُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ ... وَلَمَّاعَةُ الْقُطْرَيْنِ مَنَّاعَةُ الْقَطْرِ

وَأَفْضَى إلى شُعْثِ الحقائبِ عَرَّسُوا ... عَلَى مَنْزِلٍ وَعْرٍ وَدَاوِيَّةٍ قَفْرِ

وَقَوْمٍ لَقُوا أعضادَ كلِّ طَلِيحَةٍ ... بِهامٍ مَلاَهُنَّ النُّعاسُ منَ السُّكْرِ

سَرَوْا وَسِمَاكُ الرُّمْحِ فَوْقَ رُءُوسِهِمْ
فَمَا هَوَّمُوا إلاّ عَلَى وَقْعَةِ النَّسْرِ

وَبَاتَ ضَجِيعاً لِي وَنَحْنُ مِنَ الكَرَى ... كأنَّا تَرَوَّيْنَا الْعَتِيقَ مِنَ الْخَمْرِ

أَضُمُّ عليْهِ سَاعِدَيَّ مِنَ الحشَا ... وَأَفْرِشُهُ مَا بيْنَ سَحْرِي إلَى نَحْرِي

تَمَنَّيْتُهُ وَاللَّيْلُ سارٍ بِشَخْصِهِ ... إلى مَضْجَعِي حَتَّى الْتَقَيْنَا عَلَى قَدْرِ

معنى « وقد كاد لا يسرى » : أننى ما كنت طامعا فيه ، ولا راجيا له ، ولا محدِّثا نفسى به . و إنما قلت مناعة القطر، وهى على الحقيقة ممنوعة، لا مناعة ، لأقابل بين لمَّاعة ومنَّاعة . والمعنى مع ذلك صحيح، لأنها تمنع القطر السائر فيها، وتعدمه منها . فجاز أن يقال مناعة ، و إن كانت هى أيضا ممنوعة .

ومعنى البيت الذى أوله :

وقوم تَقُوا أعضاد كل طليحة

أنهم توسدوا أذرع المطى كَلالا واستعجالا ، وتصعلُكا وتخشنا ، و إنما قلت سِماك الرمح ، ولم أقل السماك الرامح، لضيق الشعر ، وما عد لنا مع ذلك إلّا إلى لفظ مقبول غير مستثقل ، و بين كون السماك الرامح مُسامتا لقمة الرأس، و بين وقعة النسر، وهى تدليه للغروب، زمان طويل مديد.

ومعنى البيت الأخير أنى تمنيته ، وكانت رؤيتى لطيفه عقيب ذلك ، فكأن الليل كان ساريا به فى وقت المُنَى للقارئ ، حتى كأن اللقاء عقيب المنى .

ولى أيضا :

أَلاَ يا بْنَةَ الحَيَّيْنِ مالِى وَمَالَكِ وماذا الّذى يَنتابُنِى من خيالكِ

هجرْتِ وَأنتِ الهمُّ إذْ نحْنُ جيرَةٌ وَزُرْتِ وَشَحْطُ دارُنا مِنْ دِيارِكِ

فَمَا نَلتَقِى إلّا عَلَى نَشْوَةِ الكَرَى بِكُلِّ خُدَارِىٍّ مِنَ اللّيْلِ حالكِ

يُفَرِّقُ فِيما بَيْنَنَا وَضَحُ الضُّحَى وَتَجْمَعُنَا زُهْرُ النُّجُومِ الشَّوَابِكِ

وما كَانَ هذا البَذْلُ منكِ سَجِيَّةً ولا الوَصْلُ يَوْمًا خُلةً مِنْ خِلالِكِ
فكَيْفَ الْتقَيْنَا وَالمسَافَةُ بَيْنَنا وكيفَ خَطَرْنا مِنْ بَعيدٍ ببَالِكِ
وقدْ كُنْتِ لمَّا أَوْسَعُونَا وِشَايَةً بنَا وَبِكُمْ آيَسْتِنَا مِنْ وِصَالِكِ
فلمْ يَبْقَ فى أيمانِنَا بَعْدَ مَا وَهَتْ عقودُ التَّصَابِى رُمَّةٌ مِنْ حِبَالِكِ
وَلَيْلَةَ بِتْنَا دُونَ رَمْلَةِ مُرْبِخٍ (١) خَطَوْتِ إِلَيْنَا عانِكاً بَعْدَ عانِكِ (٢)
وما كانَ مَنْ يَسْتَوْطِنُ الرَّمْلَ طامِعًا وأنْتِ عَلَى وَادِى مِنًى مِنْ مَزارِكِ
ولما امْتَطَيْتِ اللَّيلَ كُنْتِ حَقِيقةً بغَيْرِ الْهُدَى لَوْلاَ ضِيَاءُ جَمالِكِ

الخُدَارِىّ: المظلم. وسحابٌ خُدَارِىّ وعُقاب خُدَارِيَّة: فى لونها سواد.
وهذه أبيات غريبة الطرح، بدوية النسج كما تراه.

ولى من قصيدة أولها:

إن العقيق يزيدنى خبلاَ

ياطيفُ زُرْنا إنْ نَشِطْتَ لنا فالرَّكْبُ بالأبْوَاءِ قَدْ نزَلا
عُدَّ النَّهارَ مَطِيَّةً لَغِبَتْ وَخُذِ الظَّلاَمَ عَلَى السُّرَى جَمَلاَ
وَدَعِ التطلُّبَ فالحبيبُ إذا مَلَّ الْوِصَالَ تَطَلَّبَ الْعِلَلاَ
عَجِّلْ سُرَاكَ إلى مضاجِعِنا وإذاحَضَرْتَ فلاتعِبْ عَجِلاَ
مِنْ أيْنَ تعْلَمُ مَنْ نُحَاذِرُهُ قَطَعَ الخَيالُ الحبْلَ أَمْ وَصَلاَ

اللغوب: هو الكلال والتعب. وأردت أن زيارة النهار كالمطية اللاغبة، التى لايمكن السير عليها، فيجب العدول عنها إلى سُرَى الليل الذى

(١) سقطت كلمة سحاب من الأصل. وسحاب خدارى: أسود. ومربخ: جبل من جبال زرود، أو أرملة بالبادية (اللسان). (٢) يقال رملة عانك: أى فيها تعقد.

يستتر ولا يظهر . والبيت الرابع مليح المعنى . ومن جيد ما مدحت به زيارة الطيف ، أنها غير معلومة لمتتبع ، ولا محسوبة لمترصد .

ولى أيضا :

يا طَيْفُ ألَّا زُرْتَنا بِسَوادِ لَمَّا تَضَرَّعْنا حِيالَ الوَادِى

ما كانَ ضَرَّكَ والوشاةُ بِمَعْزِلٍ عَنَّا جَميعاً لوْ طَرَقْتَ وِسادِى

والرِيُّ فيكَ وَقَدْ صَدَدْتَ فقُلْ لنا مِنَّا غَليلُكَ كيفَ يَنْقَعُ صَادِ

ومنَ أجْلِ أَنَّكِ تُسْعِفِينَ عَلَى الْكَرَى

أَهْوَى الرُّقَادَ وَلاَتَ حِينَ رُقادِ

والحُبُّ دَاءٌ فى القُلُوبِ سَقامُهُ خافٍ عَنِ الرُّقَباءِ وَالْعُوَّادِ

يا زَوْرَةً مِنْ باخِلٍ بِرقادِهِ عَجِلَتْ عَطِيَّتُهُ عَنِ الميعَادِ

تَرَكَ البَياضَ لآمِنٍ وَأَتَى بِهِ فَرَقَ الوِشايَةِ فى ثِيَابِ حِدَادِ

أردت بقولى : « والوشاة بمعزل عنا » : أى أنهم لا يشعرون لنا بخبر ، ولا يقفون منا على أثر . وقولى : « عجلت عطيته عن الميعاد » أى أنها سبقت الميعاد ، وفجأت بغير وعد . وأردت بالبياض : النهار ، فإن زيارة النهار لا تكون إلا مع الأمن والانبساط . وأردت بالحداد : سواد الليل . لأن الخائف يستتر بظلمة الليل ، ويستجنّ بسواده .

ولى أيضا من قصيدة أولها :

أَمِنْكِ الشوْقُ أرَّقَنى فهاجَا

وطَيفُكِ كَيفَ زَارَ بِذَاتِ عِرْقٍ   مَضَاجِعَ فِتيَةٍ وَنَجُوا الْفِجَاجَا
فطَرّقَنـــا ونَحْنُ نخَالُ ألاَّ   يعُوجَ بِنَا مِنَ الْبَلْوَى فِجَاجَا
فأَوْهمَنَا اللّقَاء ولا لِقَاء   وناجَى لَوْ بِصِدْقٍ مِنْـهُ نَاجَى
أَلَمّ بِنَا وَمَا رَكِبَ المطَايَا   ولا أسْرَى ولا ادَّلَجَ ادِّلاَجا

ولى من قصيدة أولها :

يَاصَاحِ لَيْسَ لِسِرٍّ مِنْكَ كِتْمَانُ

مَاذَا عَلَى زَائِرِى لَيْلاً عَلَى سِنَةٍ   لوْ زَارَ صُبْحًا وطَرْفُ الْعَيْنِ يَقْظَانُ
زِيارَةُ الطَّيْفِ ضَرْبٌ مِنْ قَطِيعَتِهِ   وَوَصْلُ مَنْ لاَ تَرَاهُ الْعَيْنُ هِجْرَانُ
وَلَيْسَ يَنفَعُنِى وَالْبُعْدُ أَعْلَمُهُ   قُرْبٌ أَتَانِى بِهِ ظَنٌّ وَحِسْبَانُ

هذا من هجو الطيف الغريب الواقع ، لأن الزيارة إذا كانت باطلة لا أصل لها فهى على الحقيقة قطيعة . ووصل من لا تراه العين هجران بغير شبهة ، لأن هذا البيت كالغريب ، فإننى لم أجد له على هذا الترتيب نظيرا . وأردت أن الظن والحِسبان اللذين خيّلا فى النوم القرب ؛ لا ينفعان مع البعد المتحقِّق المتيقَّن .

ولى من قصيدة أولها :

أما لكِ مِنْ غَرَامٍ ما أمالاَ

هَجَرْتِ ونَحْنُ أيقَاظٌ بِوَجٍّ   وَزُرْتِ ونحْنُ كَاظِمَةَ[1] خَيالا

---

(١) أى بكاظمة ، سقط الجار ، فنصب الإسم .

وَلَيْسَ الهجرُ عن سَبَبٍ وَلـكِنْ خَلَوْتِ وما خلَوْنا مِنْك بالا
وطيفٌ منكمُ بجنوبِ نَجْدٍ أرانِى مِنْ زِيارَتِكمْ مِثالا
أقامَ عَلَى مَضاجِعِنَا هُدُوًّا فلمّا زَالَ عَنَّا النَّوْمُ زَالاَ
لَهَوْتُ بِبَاطِلِ الأَحْلاَمِ حَتَّى وَدِدْتُ لَهُنَّ أنَّ اللَّيْلَ طالا
أَلَيْلَتَنا بكاظِمَةٍ أَظَلِّى بِياضَكِ أنْ يُلِمَّ بِنَا ضَلاَلاَ
فلَيْسَ الصُّبْحُ مِنْ أَرَبِى وَحَسْبِى ظِلالُ الليلِ أُسْكُنُهُ ظِلالا

أوقعُ ماوصفت به زيارة الطيف : أنها مثال الزيارة الحقيقية ، كما أن الطيف مثال لصاحبه ولا حقيقة له .

ولى من قصيدة أولها :

أَمِنْ أَجْلِ مَنْ سارَتْ بِهِنَّ الأباعِرُ

وَيُعْجِبُنِى والنَّاعِجَاتُ مُشِيحَةٌ خيالٌ مِنَ الزَّوْرَاءِ فى اللَّيْلِ زَائِرُ
يَزُورُ وَأَعْنَاقُ المَطِىِّ خَوَاضِعٌ كَلالاً وَأحشاءُ المَطِىِّ ضَوَامِرُ

ولى من قصيدة أولها :

ألاَ أيُّهَا الحَادِى قِفِ العِيسَ عَلَى الوَادِى
وَأيْنَ الطَّفُ مِنْ ظَميا ءَ أمْسَى وَهْوَ مُعْتادِى
جفَا صُبْحًا ووافانِى صَرِيعًا بَيْنَ رُقَّادِ
وَأعْنَاقُ المَطَايَا مِنْ كَلاَلٍ بَيْنَ أعْضادِ
تَلاَقَيْنَا بِأَرْوَاحٍ وَفَارَقْنا بِأَجْسَادِ

الأرواح لا يصح عليها فى الحقيقة التلاقى والتزاور ، ولـكن الشعراء لما رأوا أن الأجساد فى طيف الخيال لم تتلاق ، ولا تدانت ، نسبوا التلاقى إلى الأرواح ، تعويلا على قول من جعل النفس لها قيام بنفسها ، وأنها غير الجسد ، وأن التصرف لها ، فجرينا على هذه الطريقة ، وإن كان ذلك باطلا فى التحقيق .

ولى من قصيدة أولها :

يومَ الحمى ما أنْتَ مِنْ هَمِّى

لوْ كانَ لِلْوَاشِينَ مَقْدِرَةٌ ... ما سَوَّغُوك زِيارَةَ الحُلُمِ

زُرْتِ الأُلى بانُوا بكاظِمَةٍ ... مُتَلَثِّمِينَ جوًى عَلَى الرَّضَمِ

طرَحُوا الخدُودَ علَى سوَاعِدِهم ... وَاللَّيْلُ فى أثْوَابِهِ السُّحُمِ

ولقد طرَقْتِ وما طروقُكِ فى ... عِلْمٍ لقائِفِهمْ ولا رَجْمِ

إنما أردتُ تفخيم شأن هذه الزيارة ، وحلاوة طعمها ؛ لأن اللذات الواردة من غير احتساب ولا انتظار ، أنفع وأوقع .

ولى من قصيدة أولها :

تلكَ الدِّيارُ برَامَتَيْنِ هُمُودُ

ولقد طَرَقْتِ وَما طَرَقْتِ صَبَابَةً ... بِمِنًى وَنَحْنُ إلى الرِّحَالِ هُجُودُ

فى ظلِّ خُوصٍ كالقِسِىِّ طلائحٍ ... أخَذَتْ عوَارِيَهُنَّ منهـا البِيدُ

أَنّى اهْتَدَيْتِ وكيفَ زُرْتِ وَ بَيْنَنا ... دُونَ الزِّيَارَةِ مُرْبِخٌ وَزَرُودُ
ومفَاوِزٌ مِنْ دُونِهِنَّ مفاوِزٌ ... وتهَائِمٌ مِنْ فَوْقِهِنَّ نُجُودُ

معنى « عواريهن » منها البيد : أن هذه المطايا رعت منابت الأرض وشجرها فأسمنها، ولما أجهدها السير، وخددَّ لحومها وأهزلها ، صار ما كان أسمنها أهزلها ، فكأنه مستردٌّ لعاريته .

هذا معنى مطروق معروف فى الشعر القديم والحديث. ومُرْبِخ وزَرود: رملان فى طريق مكة ، معروفان شاقان .

ولى من قصيدة أولها :

أشاعِرَةٌ بمَا يَلْقَى ظَلُومُ

وَلَيْلةَ زَارَنا مِنكُمْ خَيَالٌ ... وَوَجْهُ اللَّيْلِ مِنْ وَضَحٍ بَهِيمُ
أَلَمَّ بباطِلٍ وَيَوَدُّ قَلبى ... وِدَادًا أَنَّهُ أَبَدًا مُقِيمُ
وَأَحْسَبُهُ الضَّجِيعَ عَلَى وِسَادِى ... وما رَامَ اللِّقاءَ وَلا يَرُومُ
وكيفَ يَزُورُ مِنْ بَلَدٍ بَعِيدٍ ... ولا عَنَقٌ هُنَاكَ وَلاَ رَسِيمُ

إنما قلت : ما رام اللقاء ولا يروم، فنفَيْتَ الماضى والمستقبل، لأن الطيف إنما هو تخيل لا حقيقة له . فليس هو مما يجوز أن يروم ، لا ماضيا ولا مستقبلا .

ولى من قصيدة أولها :

أَعَلَى الْعَهْدِ مَنْزِلٌ بِالْجِنَابِ

حَيَّ بِالرَّقْمَتَيْنِ زَوْرًا تَوَخَّا ... كَ دُجًى بَعْدَ هَدْأَةِ الْأَصْحَابِ

زَارَنِي وَالرُّقَادُ مِنِّي وَمِنْهُمْ ... دَاخِلٌ فِي الْعُيُونِ مِنْ كُلِّ بَابِ

زَوْرَةً زُوِّرَتْ عَلَيَّ وَلَوْ كَا ... نَتْ يَقِيناً لَمَا شَفَتْ بَعْضَ مَا بِي

قولى : « داخل فى العيون من كل باب » : كناية عجيبة عن تمكن النوم من القوم ، واستقراره فى عيونهم ، وتحكمه فيهم ، وإنما أردت الاستغراق التامّ فى النوم .

ولى من قصيدة أولها :

أَدِرْ أَيُّهَا السَّاقِي الْكُئُوسَ عَلَى صَحْبِي

فَيَاطِيفَهَا أَلَّا طَرَقْتَ رِحَالَنَا ... وَنَحْنُ عَلَى الْأَذْقَانِ فِي جَانِبِ الشِّعْبِ

نَشَاوَى كَأَنَّا سَاوَرَتْنَا زُجَاجَةٌ ... مُضَرَّجَةُ النَّاجُودِ دَامِيَةُ السَّكْبِ

بِنَا مِنْ هَوَى لُقْيَاكِ كَرْبٌ نُحِبُّهُ ... فَلَوْ زُرْتِنَا نَفَّسْتِ مِنْ ذَلِكَ الْكَرْبِ

وَمَا ضَرَّ مَنْ يَأْبَى زِيَارَةَ مُقْلَتِي ... مُجَاهَرَةً لَوْ زَارَ مُسْتَخْفِياً قَلْبِي

وَمَنْ ضَنَّ فِي لُقْيَايَ بِالصِّدْقِ مُسْرِفًا ... عَلَى مُرْتَجِيهِ كَيْفَ يَبْخَلُ بِالْكِذْبِ

معنى البيت الرابع : قد تقدم شرحه عند بيان معنى قولى :

مَوَّهَ قلبي على ناظرى

لأن زيارة المهاجرة هى التى ترى العينُ فيها الشخص على الحقيقة ، وزيارة القلب : التى تتمثل فيها للقلب من زيارة الطيف ما لاحقيقة له .

ولى من قصيدة أولها :

لَيْتَ أنا لمَّا فقَدْنا الهُجُوعا

قُلْ لِطَيْفِ الخَيالِ لَيْلة هَوَّمْـــنا بنجْدٍ ألاَّ طرَقْتَ هَزِيعا
والمطَايا من الكَلالِ عَلَى رَمْـــلِ زَرُودٍ قد افتَرَشْنَ الضُّلُوعا
ما عَلَى مَنْ يَحِلُّ بِالْغَوْرِ لَوْ بَا تَ لنَا طيفُهُ بِنَجْدٍ ضَجِيعَا
خَادِعُونا بالزَّوْرِ مِنكُمُ عن الحقِّ فمَا زَالَ ذُو الهوَى مَخْدُوعا
وَكِلُونا إلى النُّزُوعِ عنِ الحُبِّ وهَيْهَاتَ أَنْ يُرِيدَ النُّزُوعا
وَاطْلُبُوا إنْ وَجَدْتُمُ كاتِمًا لِلسِّـــرِّ فِيكُمْ فقد وَجَدْنا المُذِيعا

ولى من قصيدة أولها :

ياحادِىَ العِيسِ عَرِّجْ بى عَلَى الدِّمَنِ

وَقَدْ جَفانِىَ حَتَّى إنّ طَارِقَهُ فى ظُلْمَةِ اللَّيْلِ عَهْدًا لَيْسَ يَطْرُقُنِى
وَمَنْ يَضِنُّ بِزَوْرٍ مِنْهُ كيفَ يَدِى(١)
والنَّقْلُ لِلْحَقِّ يَوْمًا فِيــهِ يَنْقُصُنِى

(١) كذا فى الأصل ، وفى الكلام غموض .

من ضنّ بالباطل مع سهولته وخفته ، كيف لا يضن بالحق مع ثقله وكُلْفته .

ولى أيضا ، وهى ابتداء قصيدة :

زَارَكَ زَوّارُ الحُلُمْ   مسلِّماً بذِى سَلَمْ
فى ليـلةٍ ظلماؤُها   حالِكةٌ من الظُّلَمْ
كأنَّها إثمِدَةٌ   أو فَحْمَةٌ من الفَحَمْ
جاء وسادِى عائدًا   فلمْ أَبِنْ من السَّقَمْ
والركْبُ فى ظِلِّ نَقًى   لوْ زَعْزَعُوهُ لانْهَدَمْ(١)
كأنَّما مَرُّ الصَّبا   رَقَّشَ فيهِ بالقَلَمْ

ولى من قصيدة أولها :

لِعينيكِ منها يومَ زالت حُمُولُها

وَلَيلةَ بِتْنا بالأُبَيْرِق جاءنى   عَلى نَشْوَةِ الأَحْلامِ وَهْناً رَسُولُها
خَيالٌ يُرِينِى أنَّها فَوْقَ مَضْجَعِى   وَقَدْ شَطَّ عَنِّى بِالغُوَيْرِ مقيلُها
فَيالَيْـلةً ما كانَ أنعمَ بَثَّها   تبارَحَ غاوِيها وغابَ عَـذُولُها
وَماضَرَّنِى منها وقَدْ بِتُّ رَاضِيًا   بباطِلِها أَنْ بَانَ صُبْحًا بُطولُها
فلما تجلَّى الليلُ بالصُّبْحِ وَامَّحَتْ   دياجِرُ مُرْخاةٌ علينا سُـدولُها

---

(١) النقى : الكثيب من الرمال .

أَفَقْتُ فَلَمْ يَحْصُلْ عَلَيَّ مِنَ الَّذِى خُدِعْتُ بِهِ إِلَّا ظُنُونٌ أُجِيلُهَا

ولهذه الأبيات ، ماتراه ولا تقدر على جحده ، من الفصاحة والطلاوة ، والبدوية التى يوجد طعمها فى فصيح كلام القوم ، وإنما أردت الطيف رسولها، لأنه مذكر بها ، ومشوق إليها ، ولأنه مثل لها ومترجم، فجرى مجرى الرسول .

وأما البيت الرابع : فمعناه أنه لا يتلم متعتى بالطيف ليلا ولا ينقص لدىّ به بيان بطلانه فى الصبح ، لأن الحالتين متغايرتان . وقد قال الناس فى الطيف إنه ممتع نافع ، وإن كان زُورا وباطلا ، لكنهم مابلغوا هذا التحقيق ، ولا كشفوا عن العلة هذا الكشف . فالزيادة فيه على ماتقدمه غير مجهولة . ومعنى قولى : « فلم يحصل علىَّ إلا ظنون أجيلها[1] »

أن الطيف إذا كان على مابيناه ، إنما هو تخييل وتمثيل ، واعتقادات وظنون باطلة ، فمع اليقظة لا يحصل فى اليد شىء منه، إلا ذلك الظن الباطل ، والتخيل الفاسد . وكان عندى أننى سابق إلى وصف الطيف بأنه رسول ، ومنفرد بهذا المعنى ، لأننى ما كنت وقفت فيما تصفحته ورويته على نظير له، إلى أن رأيت وأنا أملى هذا الكتاب، لأشجع السُّلَمِىّ، فيما رواه أبوعبدالله المرزُبانى عن شيوخه قوله :

حَيِّ طَيفاً أَتاكَ بعْدَ المَنامِ فَتَخَطَّى إِلَيْكَ هَوْلَ الظَّلَامِ

(١) إشارة إلى البيت الأخير من المقطوعة ، انظره فى أعلى هذه الصفحة .

شَحَطَ الحَيُّ من سُعَادَ وَمِنَّا رُسُلٌ بَيْنَنَا مِنَ الْأَحْلَامِ
بَخِلَتْ بالسَّلامِ يَقْظَى وَجَادَتْ بِهَوَاها وَنَفْسِهَا فى المَنَامِ

ووجدت أيضا ، فيما استأنفت تصفّحه وتأمّله للبحترى :

إِذَا أَرْسَلَتْ طَيفاً يُذَكِّرُنى الجوَى رَدَدْتُ إِلَيْهَا بِالنَّجَاحِ رَسُولَهَا

ومما يمكن أن يكون نظيرا لذلك قول البحترى :

وَلَيْـلَةَ هَوَّمْنا عَلَى الْعِيسِ أَرْسَلَتْ بِطَيْفِ خَيالٍ يُشْبِهُ الحَقَّ باطِلُه

وهذا على ماتراه نظير لقولى :

« جاءنى رسولها وما شعرت به[1] »

وكما قلت فى كثير من كتبى وأمالىّ : إنه لاينبغى لمصنف أن يقول هذا البيت مسروق المعنى من فلان ، لأنه قاطع على مالا يأمن هذا أن يكون كذبا ، فربمـا تواردا فيه من غير قصد . والأولى أن يقال : هـذا نظيره وشبيهه . وهكذا يجب أيضا ألا يطلق أحد فى معنى من المعانى ، أنه متفرد به ، وسابق إليه ، وإن كان لم يُسمع له نظير ، ولاعثر له على شبه ، لأنه لايأمن أن يكون فيما لم يبلغه ، ولااتصل به ، قد ورد ذلك المعنى ، فإن الخواطر لاتُضْبط ولا تحصر . ومن ذا الذى يحيط علماً بكل ماقيل وسطر وذكر ؟ والإنصاف أن يقال فى مثل هذا المعنى : ينفرد به فلان على مابلغنى ، واتصل وانتهى إليه تصفحى وتأملى .

ومن نظَم معنى نَتَجَه خاطره ، وسمح له به هاجسه ، لم يكن يحتذى فيه

(١) إشارة إلى المعنى الوارد فى البيت الأول من المقطوعة الأخيرة .

مثال غيره ، فهو فى الحقيقة كالسابق إليه وإن كان قد وُجِدَ له نظيرٌ ماعرفه ولا بلغه ، يسلب الفضيلة من اعتمد على معنى سبق إليه غيره، فنظمه وأدخله فى كلامه ، لأنه لم يحظ بفضيلة السبق التى يقتضيها نتيجة الفكر، وثمرة الخاطر . ومن أخرج إليه خاطره بعضَ المعانى من غير أن يكون سمعه ولاقرأه ولا احتذاه ، فله فضل الاستخراج والاستنباط الدالين على قوة الطبع ، وصحة الفكر ، وما عليه بعد ذلك أن يكون قد تقدمه متقدم فيه، فوقع التوارد فيه من غير عمد ، فإن تجويز ذلك لا يسلُب مدحا ، ولا ينقُص فضلا .

ولى أيضا وهو ابتداء قصيدة :

عَجِبْنَا مِنْ خَيالِكِ كيفَ زَارَا ... عَلَى عَجَلٍ وما أَمِنَ الحِذَارَا

أَتَى والشَّوْقُ جَاذِبُهُ إليْنَا ... ومَنْ تَبِعَ الهوَى رَكِبَ الخِطَارا

تَلاَقٍ ضَاعَ ما أَغْنَى فَتيلاً ... سِوَى أنْ هاجَ لِلقَلْبِ ادِّكارا

ولى من قطعة مفردة :

وزَائِرٍ زَارَنى وَهْنًا يُغالِطُنى ... وَلوْ لَبِسْتُ بَياضَ الصُّبحِ لمْ يَزُرِ

تَمَّتْ لهُ وسُتُورُ اللَّيْلِ مُسْبَلَةٌ

بَيْنِى وَبَيْنَ يَقِينِى وَالْكَرَى سُكْرِى

وَلوْ أرادَ خِداعى غيرَ ذِى وسَنٍ ... لكانَ من نَيْلِ مايَبغِى عَلَى غرَرِ

البيت الثانى : عجيب المعنى، لأنّ تخيل الطيف إنما يتم بالنوم ، حَجَزَ بين اليقين و بين النائم ، فاعتقد مالا حقيقة له .

ولى أيضا من قطعة :

أَتُرَى عنْ حُسْنِ رَأْ ... ىٍ زارَنا طيفُكِ وَهْنا
لمْ يُفِدْنا وطَرِيفٍ خَا ... دِعٌ يُوجِبُ مَنَّا
إنّما الطَّيْفُ كلفظٍ ... فَارِغٍ مافيــهِ معْنى
كمْ رَأَيْنَا باطِلاً نفّسَ كَرْباً مِنْ مُعَــنَّى

ماوجدتُ إلى الآنَ تشبيه الطيف الذى لامفتش له ولامحصول، باللفظ الخالى من معنى، العاطل من غرض ، و إن كان قد قيل قديما وحديثا : إن الطيف باطل وزور ومُحال ، ولا عائدة له ، فما شبهوه هكذا باللفظ الفارغ ، فهذا التشبيه هو الغريب .

ولى وهو ابتداء قصيدة :

مازُرْتَ إلاَّ خِداعًا أيُّها السَّارِى ... ثُمَّ انقَضَيْتَ وما قَضَّيْتُ أَوْطارِى
أنَّى يَزُورُ عَلَى الظَّلْمَاءِ من شَحَطٍ ... مَنْ كانَ صُبْحًا وقُرْباً غَيْرَ زَوَّارِ
لامُتْعَةٌ لِي بِمَنْ نَادَمْتُ صُورتَهُ ... لَمّا أتَتْنى بها فِى اللَّيْلِ أفْكارِى
وَلَوْ أرَدْتَ بِىَ الإِسْعافَ زُرْتَ وما
دَرى الدُّجَى لِلْـكَرَى ما بَيْنَ أشْفارِى (١)

---

(١) الأشفار : جمع شفر بالضم : وهو حروف الأجفان التى ينبت عليها الهدب .

وَلَيْسَ يَنْفَعُ مَنْ يُضْحِي بِمُجْدِبَةٍ   أَنْ بَاتَ مَا بَيْنَ جَنَّاتٍ وأَنْهَارِ

هذا من الابتداءات المشار إليها فصاحة و بلاغة . وقولى : مازرتَ إلا خداعاً يحتمل وجهين :

أحدهما : أن يكون المعنى مازرت حقيقة ، لـكنك خادعت خداعا . و يحتمل أيضا أن أريد : مازرت إلا للخداع ، كما تقول ماقصدتك إلا إكراما لك ، أى للإكرام . وكيف لا يعجب من تارك الزيارة فى الصبح مع قرب ، إذا زار فى الظلماء من بعد . ولهذا الكلام ماله فى الاطراد والاستقامة ، وحسن المقابلة .

و إضافة الطيف إلى الفكر . قد تقدم الكلام على نظيرها مستوفى . و إذا كان من يُضْحِي بالأرض المجدبة المقفرة ، لا ينفعه أن كان بائتاً بين الرياض الناضرة ، والجنان الزاهرة ، فأولى أن لا ينفع من خُيِّل له الطيفُ الانتفاع والاستمتاع ، ثم أصبح عاريا من ذلك كله ، فارغا من جميعه .

ولى من قصيدة أولها :

أَلاَ لَيْتَ عَيْشاً ماضِيًا عنكِ بالحِمَى   وإنْ لَمْ يَعُدْ ماضٍ عَليْكِ يَعُودُ

ويازَوْرَنا لمَّا سَمَحْتَ بزَوْرَةٍ   سَمَحْتَ بِهَا وَهْنًا ونحْنُ هُجُودُ

عَلَى غَفْلةٍ جاء الـكَرَى باعِثاً لنَا   بلا مَوْعِدٍ وَالزَّائِرُونَ هُمُودُ

فيَامَرْحَبًا بالطَّارِقِ بَعْدَ هَجْعَةٍ   تَقَرُّ بِهِ الأَحْلاَمُ وَهْوَ بَعِيدُ

وَعلَّمَنى كَيْفَ المُحَالُ نِقَاوَةُ وأَنَّى النقاء والنقاء كَئودُ
وما نحْنُ إلاَّ فى إسارِ عَدَامةٍ وعندَ كَرَانَا أنّ ذَاكَ وُجُودُ

قولى : تقرّبه الأحلام وهو بعيد : له شهادة من نفسه على فضله ، غير مردودة ولا مجحودة . و إنما أضفت إلى الكرى أن العدم الذى نحن فيه وجود ، لأنه السبب فى هذا الاعتقاد الفاسد ، والظن الباطل .

ولى وهى قطعة مفردة :

أَلَمَّتْ بنا بعدَ الهُدُوءِ وَرُبَّمَا أَلَمَّ بِنا مَنْ لَيْسَ نَرْجُو لِمامَهْ
فَيالَكَ مِن يوم شَحَطْتَ بَياضَهُ فلَمْ يَعْدُنى حتَّى رَضِيتُ ظَلامَه
ومِنْ مُغرَمٍ يقلى لذيذَ انْتِباهِهِ وَيَهْوَى لِما جَرَّ المنامُ مَنامَهْ
وَمِنْ مُسْعِفٍ جُنْحا بِطيبِ عِناقِهِ وكَمْ حَرَمَ العُشَّاقَ صُبْحًا كَلامَه
فإنْ لَمْ يَكُنْ حَقًّا فَقَدْ باتَ مُغرَمٌ يُدَاوِى بتلكَ الباطِلاتِ سَقامَهْ
مُحِبَّ بِهِ مِنْ باذِلٍ لِى حلالَهُ وَفَادٍ بِذَاكَ البَذْلِ مِنِّى حَرَامَه
ومِنْ مُلْتَقٍ عَذْبِ المَذَاقِ وَتَحْتَهُ فلَمْ يَرْضَ لِى حَتَّى رَبِحْتُ أَثامَه
ولا عيْبَ فيهِ غيرَ قُرْبِ زَوَالِهِ عَلَى أَنَّ مُشْتاقًا أَرادَ دَوَامَه

لهذه الأبيات فوق ماشاء المقترح المُشِطُّ من حسن تصرف ، وتقلب فى أوصاف الطيف ، وخروج من معنى إلى غيره ، بكلام جزل سهل .

وقد تضمن البيت الذى أوله :

مُحِبَّ به من باذلٍ لى حلالَهُ

والبيت الذى يليه ، معنى فى الطيف غريبا ، ماظفرت بنظير له إلى الآن فى الشعر المدوّن ، لأن بلوغ الغاية فى المتعة بطيف الخيال ، لا يكون إلا مباحاً ، لا إثم فيه ولا عار ، وقد يكون حراما و إثما وعاراً، لو كان فى اليقظة، وعلى الحقيقة . وقد تكرر هذا المعنى فى شعرى .

فإن اشتبه سَبْق البحترىّ إلى هذا المعنى فى قوله :

فَمَا نَلْتَقِى إِلّا عَلَى حُلْمِ هاجِدٍ ‏ ‏ ‏ ‏ يُحِلُّ لَنا جَدْوَاكِ وَهىَ حَرَامُ

فالجواب : أن البحترىّ إنما عَنى أن النوم يبذل لنا جدواكِ ، بعد أن كانت ممنوعة ، فعبر عن البذل بالتحليل ، وعن المنع بالتحريم ، وذلك مليح منه ، ولم يرد التحليل والتحريم الحقيقيين ، و إنما أراد أنا لا نلتقى إلا فى النوم الذى بذل من الالتقاء ما كان ممنوعاً ، فكأنه أحل حراما .

فإن قيل يجوز أن يكون عنى ماذكرته ، وعَنى أيضا أن التمتع فى النوم يكون حلالا ، و إن كان فى اليقظة حراما ، قلنا : الجدوى هى العطية ، والعطاء لا يحرم على الحقيقة فى اليقظة و يحل فى النوم ، والمتعة بالطيف هى التى لها هذه الصفة . فإذا قيل ألاّ أراد بالجدوَى ضروبَ التمتع والتلذذ ؟ قلنا هذا عدول عن ظاهر الكلام بغير ضرورة ، ولو أن مُقسِما أقسم على أن البحترىّ ماخطر بباله ماصرّحنا نحن به فى الأبيات الميمية ، و إنما عنى ماحكيناه ، لكان صادقا .

فأما قول الفرزدق :

إِذَا مانأتْ عنى حَيِيتُ وَإِنْ دَنَتْ فأَبْعَدُ مِنْ بَيْضِ الأَنُوقِ كلامُها
وتَمْنَعُ عَيْنِى وَهْىَ يَقْظَى حلالَهَا ويُبْذَلُ لِى عنـد المنامِ حرامُها

فليس له بالمعنى الذى اختصصت به شبَه ، وإن كان قد أتى بلفظ التحريم والتحليل ، وليس المعوّل على الألفاظ ، وإنما المعول على المعانى .

وإنما أراد الفرزدق أنها تمنع عينه وهى يقظى ، ماهو حلال من النظر إليها والتسليم عليها ، وتبذل له عند منامه ماهو حرام من التمتع التام بها ، وهذا ضدّ ما قصدته أنا من المعنى ، لأن الفرزدق قرن التحليل باليقظة ، والتحريم بالمنام ، وأنا جعلت التحليل فى النوم ، والتحريم فى اليقظة . وكل منا قصد مقصدا صحيحا ، لأنى أردت أن التمتع الذى نلته فى النوم حلالا ، لو كان فى اليقظة لكان حراما .

والفرزدق أراد به أنها تمنع فى اليقظة من كلام وما أشبهه حلالا ، وتبذل له عند المنام ماهو حرام . وإنما يريد أنه حرام لو كان فى اليقظة ، فإن ما يكون فى النوم لا يكون حراما . فبان بهذا الشرح خلاف المعنى الذى قصدته لمعنى الفرزدق .

ولى من قصيدة أولها :

مرّتْ بنَا بمُصَلَّى الخَيْفِ سَانِحَة

كَمْ مرّةٍ زُرْتِنَا وَهْنًا عَلَى عَجَلٍ سَرَيْتِ فِيهَا وما أسْرَتْ مطاياكِ
حَتَّى الْتَقَيْنَا عَلَى رَغْمِ الرُّقَادِ وَمَا ذَاكَ اللّقَاءُ سِوَى وَسْوَاسِ ذِكْرَاكِ

ولى من قصيدة أولها :

هىَ الدَّارُ مَوْقُوفٌ عليكَ هَوَاها

زَارَتْ وِسادِى فى الظَّلامِ خَرِيدَةٌ — أَرَاها الكَرَى عَيْنِى وَلَسْتُ أَرَاها
تمانِعُ صُبْحًا أَنْ أَرَاها بناظِرِى — وتَبْذُلُ جُنْحًا أَنْ أُقَبِّلَ فَاها
ولمّا سَرَتْ لم تَخْشَ وَهْنًا ضَلالَةً — ولا عَرَفَ العُذَّالُ كَيْفَ سُرَاها
فَمَنْ ذَا الّذِى مِنْ غَيْرِ وَعْدٍ أَتَى بِهَا — وَمَنْ ذَا عَلَى شَرْبِ المَزَارِ هَدَاها
وقالُوا عساها بَعْدَ زَوْرَةِ بَاطِلٍ — تَزُورُ بلا رَيْبٍ فَقُلْتُ عَساها

معنى البيت الأول : أن السكرى خَيَّل لى أن أراها بعينى ، و إن كنت لا أراها على الحقيقة .

ولى من قصيدة أولها :

دع الهوَى يَتْبَعُهُ الأخرقُ

لاطَرَقَ الطَّيْفُ الّذِى كانَ مِنْ — أَكبَرِ هَمِّىَ أَنّهُ يَطْرُقُ
حَدَّثَ قَلْبِى وَهْوَ طَوْعُ الهوَى — مُحَدِّثٌ فى النَّوْمِ لا يَصْدُقُ
وكيفَ لَوْلاَ أَنَّهُ بَاطِلٌ — يَسْرِى وما سارَتِ الأَيْنُقُ
زَارَ وَمازَارَ سِوَى ذِكْرِهِ — وَبَيْنَنا داوِيَةٌ سَمْلَقُ

إنما قلت : لاَ طَرَقَ الطيفُ ، لأنى بنيت هذه القصيدة على ذم اتباع الهوى ، والانخراط فى سلكه . ومن عَزَف عن الهوى والانخراط

فى سلكه ، لا فائدة له فى طروق الطيف . وإنما جعلتُ هـذا المحدِّث لايصدق فى النوم خاصّة[1] ، لأن النوم هو السبب فى كذب ظنون النائم ، وفساد أحاديثه لنفسه واعتقاداته .

وقدتقدم أن قولى «زار وما زار سوى ذكره» : أجود ، وأشد تحقيقا من كل نظير له فى هذا المعنى .

ولى فى هذا المعنى من قصيدة أولها :

لِمَنْ ضَرَمٌ عَلَى اليَفَاعِ تعَلَّقَا

وَقَدْ زَارَنِى بَعْدَ الهُـدُوِّ خيَالُهُ   فَجَدَّدَ مِنْ شَوْقِى وما كانَ أَخْلَقَا !

فلِلّهِ مَرْدُودٌ إلَىَّ طُروقُهُ   وما كُنْتُ أَرْجُو مِنْهُ باللَّيْلِ مَطْرَقَا

ولى من قصيدة أولها :

قَدْ كانَ يُدْرِكُ عِنْدَ كُنَّ السُّولُ

وَطَرَقْنَنِى وَهْنًا بأَجْوَازِ الرُّبَا   وَطُرُوقُهُنَّ عَلَى النَّوَى تَخْيِيلُ

ياليْتَ زَائِرَنَا بِفَاحِمَةِ الدُّجَى   لمْ يَأْتِ إلاَّ وَالصَّبَاحُ رَسُولُ

فَقَلِيلُهُ وَضَحَ الضُّحَى مُسْتَكْثَرٌ   وكَثِيرُهُ غَبَشَ الظَّلاَمِ قَلِيلُ

مَاعابَهُ ، وَبِهِ السُّرُورُ ، زَوَالُهُ   فَجَمِيعُ مَاسَرَّ القُلُوبَ يَزُولُ

هذه الأبيات لا فقر بها إلى تفسير وتنبيه ، كما لا حاجة بها إلى مدح وإطراء .

ولى من قصيدة أولها :

ماقرَّبُوا إلَّا لِبَيْنٍ نُوقَا

(١) فى الأصل : حاضرة ، ولا معنى لها هنا .

طرقَ الخيالُ ولم يكُنْ قبلَ النّوَى هذا الخيَالُ لَنا هُنَاكَ طرُوقا
لمْ أدْرِ ماهوَ غيْرَ أنّ طرُوقَهُ أغرَى بشَائقِةِ القُلُوبِ مَشُوقا

ولى من قصيدة أولها :

وَزَوْرٍ زَارَنا واللَّيْلُ دَاجٍ وَقَدْ مَلأَ الكَرَى مِنَّا العُيُونا
يُرِينى أنّهُ ثانِ وِسادِى مُضاجَعَةً وَزُورٌ مَا يُرِينا
نَعِمْتُ بِبَاطِلٍ وَيَوَدُّ قَلْبى وِدَادًا لوْ يكُونُ لَنا يَقِينا

ولى من قصيدة أولها :

إنَّ عَلَى رَمْلِ الْعَقِيقِ خِيَمَا

نَبَا فمَا نأملُ فى لِقائِنَا ذَاتَ الثّنايا الغُرِّ إلّا الحُلُمَا
أهْوَى وَإنْ كانَ لنا تَعِلّةً طَيفًا يُوَافِى مِنكُمُ مُسَلِّمَا
يَبْذُلُ لِى مِن بَعْدِ ماضَنَّ بِهِ وَشَافِهِى النّوْمُ : العِذَارَ وَالفَمَا
وجادَ حِلاًّ وَالدُّجَى شِعَارُنا بنَائِلٍ لوْ كانَ صُبْحًا حرّمَا
حُبٌّ بِها إلمَامَةٌ مَأمُونَةٌ وَزَوْرَةٌ يُزِيحُ فِيها التُّهَما
وَجَدْتُ فِيها كلَّ ما أحْبَبْتُهُ لكِنّ وِجْدَانًا يُضاهِى العَدَمَا
ماعَلِمَتْ نَفْسِى بمَاذَا حُبِيَتْ ولا الّذِى جادَ عَلَيْنَا عَلِمَا

معنى البيت الأول : أن التباعد بيننا قويت أسبابه ، وأُرتجت أبوابه ،

إما لبعد المسافات ، أوقوة الوشايات ، حتى مانطمع فى تلاقٍ إلا فى النوم ، وهذه غاية اليأس من اللقاء والاجتماع .

ولقولى : « وشافعى النوم » من البلاغة ، مالا أخشى جحده ورده ، ولما كان الشافع يقرِّب بعيد الحاجة ، و يُظفِر بنجاحها ، وكان النوم كذلك فى طيف الخيال ، ولاسبب له سواه ، سُمِّى النوم شافعا فى الزيارة ، و بلوغ المراد منها .

وقولى « وجاد حِلاًّ والدُّجَى شعارنا » : نظير قولى :

« فَحُبَّ به من باذل لى حَلاَلَه وفادٍ بذاك البذلِ منه حرامَه[1] »

وقد تقدم بيانه ، وأنه غريب لاأعرف سابقا إليه . ومعنى قولى :

حُبَّ بها إلمـامةً مأمونةً

يحتمل أن الإثم والعار فيها مأمونان ، و يحتمل أنها غير متهمة ولا مستراب بها . وأكدت ذلك بقولى :

وزَوْرةٍ يُزِيح فيها التُّهَما

ومعنى البيت الأخير: أن العلم مفقود فى طيف الخيال ، ممن طرقه الخيال ، وممن ذلك الخيال مثال له ، ومتصوِّر به .

ولى وهو ابتداء قصيدة :

بَلَغْنَا لَيْـلَةَ الشَّغْبِ[2] عِجَالًا مُنْيَةَ الْقَلْبِ
تَلَاقَيْنَـــا كَمَا شِئنا بِلَا عِلْمٍ مِنَ الرَّكْبِ

---

(١) تقدم هذا البيت فى صفحة ٩٣ .

(٢) الشغب : مكان بالبادية بين المدينة والشا

وَطَيفٍ طافَ مِنْ ظَمْيا ءَ والإصْبَاحُ فى الحجْبِ
جَفَتْ عَيْنِي وجاءتْ فى دُجَى اللَّيْلِ إلى قَلْبى
وَزَالتْ غِبَّ مازَارَتْ وما قلْتُ لها حَسْبِى
وَوَلَّتْ لم تَنَلْ شَيْئًا من الغُنْمِ سِوَى حُبِّى

نظيرُ قولى: « جَفَت عينى... البيت» قولى: « موّه قلبى على ناظرى ».

وقولى :

وَما ضَرَّ مَنْ يأبَى زِيارَةَ مُقْلَتِى مُجاهَرَةً لَوْ زَارَ مُسْتَخْفِيًا قَلْبِى

وقد تقدم ذلك .

ولى وهى قطعة مفردة :

وَزَوْرٍ زَارَنى واللَّيْلُ دَاجٍ فَعَلَّنِي بِبَاطِلِهِ وَوَلَّى
سقَانِى رِيقَهُ مَنْ كُنْتُ دَهْرِى مَذُودًا عَنْ مَرَاشِفِهِ مُحَلَّا (١)
وَأَوْلَى فَوْقَ ما أَهْوَاهُ مِنْهُ وما يَدْرِى بما أَعْطَى وَأَوْلَى
وَأَرْخَصَ قُرْبَهُ بِاللَّيْلِ مَنْ لَوْ سأَلْنَا قُرْبَهُ فى الصُّبْحِ أَغْلَى
نَعِمْنَا بالحَبِيبِ دُجًى فلمَّا تَوَلَّى وَاضْمَحَلَّ لَنا اضْمَحَلَّا
فإِنْ يَكُ بَاطِلًا فَسَقِيمُ حُبٍّ أَفَاقَ بِهِ قَلِيلًا أَوْ أَبَلَّا
تلاقٍ لا نَخافُ وَلا نُبالِى بما أَوْحَى بِهِ وَعَلَيْهِ دَلَّا
وَلَوْ أَنَّ الصَّبَاحَ يُطِيعُ أَمْرِى لَمَا كَشَفَ الظَّلَامَ ولا تَجَلَّى

(١) أصله محلأ ، بالهمز ، اسم مفعول من حلأه عن الورد : أى منعه .

إنما قلت إنه تلاق لايُخاف لمن دل عليـه ووشى به ، لأنه لاقدرة لأحد . . . . [(١)] .

[ولى من أبيات... [(٢)]] : نأيا فمن دون اللقاء تنائفُ

حَلّتْ بنا واللّيْلُ مُرْخٍ سُدُولَهُ   فألَاوَضَوْءُ الصُّبْحِ فى العَيْنِ مُشْرِقُ
ودِدْتِ مِطالًا عَنْ لِقَاءٍ مُصَحّحٍ   وأوْسَعَنا مِنْكِ اللّقاءُ المُلَزّقُ
فأَحْبِبْ بِهِ مِنْ طَارِقٍ بَعْدَ هَدْأةٍ   عَلَى نَشْوَةِ الأحْلَامِ لوْ كانَ يَصْدُقُ
ولمّا تفرّقْنا ولمْ يَكُ بَيْنَنا   هُنَالِكَ لَوْلَا النّوْمُ إلَّا التّفرُّقُ
تَطَايَرَ وَصْلٌ غَرّنا فكأنّهُ   رِداءٌ سَحِيقٌ أوْ مُلاءٌ مُشَبْرَقُ

إن حكم حاكم : ما فى وصف من أوصاف الطيف يفضل ويقدم ؟ فمايتعدى هذه الأبيات، والتى تقدمتها بلا فضل. ومعنى «لَوْ كانَ يَصْدُقُ»: التمنى لصدقه ، والتلهُّف عليه ؛ وليس بشرط ، لأننى أحبه على كل حال ، صَدَق أو كَذَب ، وإنما تمنَّيْت صدقه ، وجرى مجرى قول البحترىّ :

فتبسَّمتْ عن واضحا   تٍ لو لُثِمْنَ عِذابِ

وما شَرَط ، بل تَمَنٍّ وتلهف . وقد شرحت هذا المنهج فى بعض كلامى ، وأوضحته واستوفيته ، ورددت على من اشتبه عليه .

وقولى : . . . ولم يكُ بيننا   هنالكَ لولا النومُ إلا التفرقُ

---

(١) كذا فى الأصل . وبقية العبارة ساقطة .

(٢) وضعنا هذا الابتداء ، قياسا على قول المؤلف فى نظائره الكثيرة .

معناه : ما كنا على الحقيقة إلا مفترقين غير مجتمعين . وإنما خَيَّلَ النومُ الاجتماع غُرورا وزُورا ، فما حصلنا بعده إلا على ما كنا فى الحقيقة عليه . وهذا لطيف مليح .

ولى وهى قطعة مفردة :

فَدَيْتُهُ مِنْ زَائِرٍ زَارَنِى ... وَاللَّيْلُ مُسْوَدُّ الجلاَبِيبِ
زَارَ وَفِيهِ كُلُّ مَا نَبْتَغِى ... فى النَّاسِ مِنْ حُسْنٍ وَمِنْ طِيبِ
ولمْ يَضِرْها أَنَّهَا زَوْرَةٌ ... لِمَآرِبِ الآرَاءِ مَكْذُوبِ
باطِلَةٌ رَوَّتْ لَنا غُلَّةً ... والحَقُّ لمْ يَأْتِ بِمطْلُوبِ
لوْلاَ الْكَرَى مَاجَادَ لِي بالمُنَى ... مُعَشَّقٌ يَعْشَقُ تَعْذِيبِى
وكيْفَ لاَ أَهْوَى لَذِيذَ الكَرَى ... مُحَبَّبـًا جَاءَ بِمَحْبُوبِ

ولى وهى قطعة مفردة :

فلَوْ شِئْتِ لَمَّا أَزْمَعَ الحَىُّ رَوْحَةً ... أَشَرْتِ إِلَيْنَا بالبَنَانِ الْمُقَمَّعِ
فما بَانَ مَاضٍ بانَ وَهْوَ مُوَدَّعٌ ... وَقَدْ بانَ كلَّ البَيْنِ غيْرَ مُوَدَّعِ
وَصَدَّكِ قَوْمٌ عَنْ زِيارَةِ مُقْلَتِى ... فِلمْ لَمْ تَزُورِى الْقَلْبَ سَاعةَ مَضْجَعِى
وَحَاذَرْتِ وَصْلاً يَعْرِفُ النَّاسُ حَالَهُ ... فَمَا ضَرَّ مِنْ وَصْلٍ ولا أَحَدٌ مَعِى

قد تقدم نظائر قولى :

وَصدَّكِ قوم عن زيارة مَضْجَعِى (١)

(١) الصواب : مقلتى ، وقد مر قريبا .

من شعري، فإنني(١) كررته ، وقد بينت سنبق إليه ، والوصل الذى يعرفه الناس ، و يشعرون به إن كان محذورا ، فوصل الطيف غير محذور . ومعنى « ولا أحد معى » : أى لا يشعر بى ، ولا يعرف حالى .

ولى وهى قطعة مفردة :

مَنْ زَائِرٌ مَا أَجْبَنَهْ! ... مازَارَ إِلَّا فى سِنَهْ
عَنَّ لَنا فى غَلَسٍ ... فَلاَ عَدِمْنا عَنَنَهْ
ذُو دَدَنٍ وَإِنَّمَا ... نَعْشَقُ مِنْهُ دَدَنَهْ
يَهْجُرُنِى مُجَاوِرًا ... يُسْمِعُ قَوْلِى أُذُنَهْ
حتَّى إِذَا حَلَّ النَّوَى ... حَدَا إِلَىَّ ظُعُنَهْ
لَمْ يَأْتِ إِلّا فى دُجًى ... وصُبْحَه مَا أَمِنَهْ
وَزَارَنى فى وَطَنِى ... مُخَلِّيًا لِى وَطَنَهْ
ثمّ أَطَابَ وَسَنِى ... لمَّا أَطَارَ وَسَنَهْ
أَبْدَلَنِى هِجْرَانَهُ ... بِزَوْرَةٍ مُؤْتَمَنَهْ
باطِلَةٍ لكنّها ... مِنَ المُسِىءِ حَسَنَهْ
ما أَحْسَنَ النَّصْرَ عَلَى ... مُقَاطِعٍ مَا أَحْسَنَهْ
فَلَيْتَهَا زِيَارَةٌ ... تَكُونُ مِنْهُ دَيْدَنَهْ
ما بَعَثَ الواشِى إِلَى ... مَنْ نَحْنُ فِيهِ ظِنَنَهْ

(١) انظر ص ٧٥ ، ٧٦ ، ٨٢ ، ٨٧ .

وَلا رَمَى ذُو فَطِنٍ إِلَيْهِ يَوْمًا فِطَنَهْ
فَبِتُّ لَيْـلِى كُلَّهُ أُضُمُّ مِنْهُ غُصُنَهْ
وَأَلْثِمُ الصُّدْغَ الَّذِى عَقْرَبَهُ وَزَرْفَنَهْ
لَوْلاَ الدُّجَى يَشْفَعُ لِى لَما لَقِيتُ مِنَنَهْ
جَادَ بِهِ مُسْتَرْخَصًا وما نَقَدْتُ ثَمَنَهْ
فى سَاعَـةٍ كأَنَّهَا لَذَاذَةً أَلْفُ سَنَهْ
وَاصَلَ فيها سَكَنٌ بَعْدَ فِراقٍ سَكَنَهْ

السِّنة : ابتداء النوم . ويحتمل قولى : « مازار إلا فى سِنَهْ » وجهين :
أحدهما : أنه مازار لجبنه وشدة خوفه ، إلا زيارة هى تخييل ، وغير تحقيق .

والوجه الآخر : أنه يريد أنه مازار إلا فى الليل ، فعبر عن الليل بما لا يكون فى الأغلب إلّا فيه ، والليل يَستتر بظلمته الجبان الخائف . فأما الدَّدَن : فهو اللعب ، والمحبوب يُهْوَى جِدُّه ولعبه وجميع أحواله .

والبيت الذى أوله: «لم يأت إلا فى دجًى» : نظير البيت الأول، ومفسرله.
وقولى : « بزورة مؤتمنه » : قد مضى تفسير نظيره . والديدن : العادة .
وقد تقدمت نظائر قولى : « مابعث الواشى » ، والبيت الذى يليه . ومن عبَّر عن معنى متداول، بأحسن عبارة وأبلغها ، فكأنه مبتديه ومنشيه ، وما يضره أن سُبِق إليه ، إذا كان منفردًا بإحسان العبارة عنه . فحظ العبارة

فى الشعر ، أقوى من حظّ المعنى .

ولى وهى قطعة مفردة :

إنْ كانَ طيْفكِ زارَنا فلقَدْ تجنّبَنا طوِيلَا
علَّتُمُ بِطرُوقِـكُمْ وَمِحَالِكُمْ قَلْبًا عَلِيلَا
ما كانَ يرْضَى بالكَثِـ ـيرِ وَبعْدَكُمْ رَضِيَ القَلِيلَا
فهْوَ الغَـدَاةَ كَفاقِدٍ أحْبَابَهُ نَدَبَ الطُّلُولَا
أوْجَدْتمُوهُ إلَى الأمَا نِى فى لِقائِكُمُ السَّبِيلَا

معنى «رضى القليل» : أنه قنع بالطيف الذى لا حقيقة له ، وتشبيه الطيف بطلول الديار ، ورسوم الأحباب ، فى غاية الحسن والإضافة .

قد يحتمل البيت الأخير وجهين . أحدهما : أن زيارة الطيف إنما هى أمانىّ وأحاديث النفس ، فأوجدتموه سبيلا إلى هذه الأمانىّ .

والوجه الآخر : أنكم أوجدتموه بالطيف ، السبيلَ إلى تمنى لقائكم الحقيقىّ ، وأذكرتموه ذلك ، وشوّقتموه إليه . ومن مليح ما نظم فى قناعة المحب بالطيف ، على قلته ونزارته ، قول الحسين بن الضحاك الخليع :

ومافى تعرُّضِ طَيفِ الخيا لِ وَالهجْرُ حظُّكَ مِمَّنْ تُحِبْ ؟
غناءٌ قَليلٌ وَلَـكِنَّنِى تَمَنَّيْتُهُ بِقنُوعِ(١) المُحِبْ

ولى أيضا وهى قطعة مفردة :

---

(١) القنوع : ذات السؤال أو السؤال .

أَلَمَّ خَيَالٌ مِنْ أُمَيْمَةَ طارِقٌ ... ومِنْ دُونِ مسراهُ اللِّوَى وَالأَبارِقُ
أَلَمَّ بِنا لَمْ نَدْرِ كَيْفَ لِمَامُهُ ... وقد طالَ ما عاقتْهُ عَنَّا العَوَائِقُ
فلِلّهِ ما أَوْلَى الكَرَى فى دُجُنَّةٍ ... جَفَتْها الدَّرارِى طُلَّعًا والبَوَارِقُ
نَعِمْنا بِهِ حَتَّى كَأَنَّ لِقَاءنا ... وما هُوَ إِلاَّ غايَةُ الزُّورِ صَادِقُ
فيازائِرِى فى اللَّيْلِ أَلَّا وصُبْحُنا ... تُسَلُّ عَلَيْنا مِنْهُ بِيضٌ دَوَالِقُ
وكَيفَ ارْتَضَيْتَ اللّيْلَ واللَّيْلُ مُلْبِسٌ ... تَضِلُّ بِهِ عَنَّا وعَنْكَ الحَقَائِقُ
يُخَيِّلُ لِى قُرْبًا وأَنْتَ بِنَجْوَةٍ ... وَيُوهِمُنِى وَصْلاً وأَنْتَ مُفارِقُ

فضل هذه الأبيات واستواء نسجها، مما يشهد به الصاحب، والعدوّ الماقت.

ومعنى البيت الرابع ، أن التخيل قوى واشتد ،حتى لم يك بينه و بين الحق الصحيح فرق ، فلذلك تضاعفت المُتعة ، وتكاثفت النعمة واللذّة .

ولى أيضا فى ذم الطيف :

... ...(١)

وقد قال الكميت(٢) :

فلمّا انْتَبَهْتُ وَجَدْتُ الخَيا ... لَ أمانىَّ نَفْسِى وأفْكارَها

---

(١) سقط من المخطوطة ما أورده المؤلف فى هذا الموضع .

(٢) انظر الموازنة للآمدى لوحة رقم ١٣٤ مصورة دار الكتب المصرية (رقم ١٢٦٦٢) — الجزء الثانى .

قال الآمدىّ : أى وجدت الخيالَ أنا الجالب له بأمانىّ نفسى . وهذا ذلك المعنى بعينه .

قال : وقد أورد أبو تمام المعنى على حذو ما قاله جِران العَوْد (١) سَوَاء ، فقال :

اسْتَزَارَتْهُ فِكْرَتِى فى المَنامِ ... فأَتانِى فى خُفْيَةٍ وَاكْتِتامِ

فذكر أن فكرته أتته بالطيف زائرا ، كما قال جِران العَود :

« أتاك به حديث نفسك »

قال : ووصل أبو تمام بيته بأن قال :

الَّليَالِى أحْفَى بِقَلْبِى إذَا مَا ... جرَحَتْهُ النَّوَى مِنَ الأَيَّامِ (٢)

يالهَا لَذَّةً (٣) تَنَزهَتِ الأرْ ... واحُ فِيها سِرًّا مِنَ الأجسامِ

مجلِسٌ لم يكُنْ لَنا فيهِ عَيْبٌ ... غيرَ أنَّا فى دَعْوَةِ الأَحْلَامِ

ثم قال الآمِدىّ : وليس لهذه الأبيات حلاوة ، ولا عليهاَ طَلاوة .

قال سيدُنا أدام الله عُلُوَّه :

وأقول : إن لبيتى أبى تمام إحسانا لا يُجْحَد ، وفضلا لا ينكر ، ومن مدحها فلم يضع المدح إلا فى موضعه .

وقول الآمدى : إنه أخذ معناه من قول جِرَان العَوْد ... ... (٤)

---

(١) من أول هذا الكلام إلى قوله فى ص ١٠٧ « وليس لهذه الأبيات حلاوة ولا عليها طلاوة » وارد بالموازنة لوحة ١٣٤، ١٣٥ .

(٢) الموازنة : زورة (لوحة رقم ١٣٥) ١٢٦٦٢ .

(٣) تقدمت الإشارة إلى هذه الأبيات ص ٢١ من هذا الكتاب.

(٤) سقط من المخطوطة ، ما أورده المؤلف فى هذا الموضع .

الجساد والجَسَد : الزعفران. والثوب المُجَسَّد : المصبوغ بالزعفران .

والبيت الثالث لطيف المعنى ، لأن العجب كله فى اهتداء زائر ليلا وهو لايهتدى نهارا .

والبيت الرابع فيه ماتراه من رَشاقة وَملاحة .

ومعنى البيت الخامس : أن العَدَم الذى كان فى يدى قبل النوم : هو الذى معى بعده ، فلا يَدَّلك علىّ ، وأنا كما كنت .

والبيت الأخير قد تقدمت له نظائر فى شعرى ، وزيارة القلب : هى التخييل والتمثيل ، وزيارة العين : هى الحقيقة الصادقة .

ولى من قطعة مفردة :

أيازَائِرًا بِاللَّيْلِ مِنْ غَيْرِ أنْ يَسْرِى
وهَلْ زَائِرٌ باللَّيْلِ مِنْ غَيْرِ أنْ يَسْرِى ؟!

ويَامُشْبِهًا بالفَجْرِ ضَــوْءُ جَبِينِهِ
أبِنْ لِى قَلِيلًا كَيْفَ رُوِّعْتَ بِالفَجْرِ!

تَجُودُ علَيْنا والمَعَاذِيرُ جَمَّةٌ وَتَبْخَلُ بالجَدْوَى وَأنْتَ بِلاَ عُذْرِ

وَلَمَّـا تَمَادَيْنا عَلَى الهَجْرِ صُغْتَ لِى دُنُوَّكَ مِنْ بُعْدٍ وَوَصْلَكَ مِنْ هَجْرِ

وأوْلَيْتَ بِرًّا لَمْ يَكُنْ عِنْدَ وَاصِـلٍ
إلَيْهِ وَإنْ أغْنَى نَصِيبٌ مِنَ الشُّـكْرِ

البيت الثانى : كأنه غريب المعنى .

ومعنى البيت الثالث: إنك تجود ليلا ، والمعاذير فى الليل واسعة ، لمشقة الزيارة فيه ، وتبخل نهارا ، والعذر مرتفع .

ومعنى البيت الرابع : إنى عاتبتك على الهجر ، فأوهمتنى وصلا وقربا لاأصل لهما .

ومن مليح العبارة عن هذا المعنى :

.. .. صُغْتَ لى دُنُوَّكَ مِنْ بُعْدٍ وَوَصْلَكَ مِنْ هَجْرِ (١)

ولى أيضا :

ضَنَّ عَنِّى بالنَّزْرِ إِذْ أَنا يَقْظَا نُ وأَعْطَى كَثِيرَهُ فى مَنامِى

زَوْرَةٌ عاجلَتْ وما هِىَ إلاَّ الزُّ ورُ سُقْماً مُبَرِّحًا مِنْ سَقامِى

والتَقَيْنا كما اشْتَهَيْنا ولا عَيْـ ـبَ سِوَى أَنَّ ذَاكَ فى الأَحْلامِ

وإذا كانَتِ المُلاقاةُ لَيْلاً فاللَّيالِى خَيْرٌ مِنَ الأَيّامِ

وَبَلَغْتُ المَرَامَ آيَسَ ماكُنْـ ـتُ عَلَى النَّأْىِ مِنْ بُلُوغِ المَرَامِ

ولى من قطعة مفردة :

وَسَّدَنِى كَفَّهُ وَعَانَقَنى ونَحْنُ فى سَكْرَةٍ مِنَ الوَسَنِ

وَباتَ عِنْدِى إلى الصَّباحِ وما شاعَ التقاءٌ لَنا ولم يَبِنِ

خادَعَنى ثُمَّ عَدَّ خُدْعَتَهُ لِمُقْلَتِى مِنَّةً مِنَ المِنَنِ

---

(١) انظر البيت كاملا فى الصفحة السابقة .

فَلَيْتَ ذَاكَ اللِّقَاء مَا زَالَ أَوْ
لَيْتَ خَيَالاً فِى النَّوْمِ لَمْ يَكُنِ
فَإِنْ تَكُنْ زَوْرَةً مُمَوَّهَةً فَقَدْ أَمِنَّا فِيهَا مِنَ الظِّنَنِ
وَزَارَنِى زَوْرَةً بِلاَ عِدَةٍ وما أَتَى وقتُها ولمْ يَحِنِ
وإنْ تَكُنْ باطِلاً فكمْ باطِلٍ[1] عَاشَ بِهِ مَيِّتٌ مِنَ الحَزَنِ

ولى أيضا وهى قطعة مفردة :

بِأَبِى زَائِرًا أَتَانِىَ جُنْحًا لاوِدَادًا مِنْهُ فَعَنَّى وَمَنَّى
زَارَنِى ضِنَّةً بِمَوْضِعِهِ الما لِكُ قَلْبِى بُخْلاً عَلَىَّ وَضَنَّا
لمْ يُنِلْنِيَ شَيْئًا وعندَ رُقَادِى أَنَّهُ جَاءَنِى فَأَغْنَى وَأَقْنَى
صَدَّ صُبْحًا والعَيْنُ مِنِّىَ يَقْظَى وسَرَى واصِلاً وعَيْنِىَ وَسْنَى
وجَفَا بالنَّهارِ مِنْ بَعْدِ أَنْ خَيَّ لَ لِى أَنَّهُ أَتَانِىَ وَهْنَا
زَوْرَةٌ ما أَتَى بها ذَلِكَ الزَّا ئِرُ رَبْعِى فكَيْفَ يُوجِبُ مَنَّا !
هُوَ لاَهٍ عنها وما بِتُّ فِيهِ لَيْسَ عِلْمًا، ولمْ يكنْ لِى ظَنَّا
فَهْىَ تَعْلِيلَةٌ لِصَبٍّ عَلِيلٍ أَوْ خِدَاعٌ يُهْدَى لِقَلْبٍ مُعَنَّى
وهْىَ مِثْلُ السَّرَابِ أَوْ مِثْلُ لَفْظٍ
فَارِغٍ مَالَهُ ولا فيهِ مَعْنَى

معنى « وعند رقادى أنه جاءنى فأغنى » : لأن الرقاد هو السبب

---

[1] كذا فى الأصل المخطوط . والبيت من المنسرح .

فى تخيل ذلك وتمثله ، وإلا فهو مما لاأصل له . وأقنى : من القِنية . ومعنى «هو لاهٍ عنها» : أن هذا الطيف مثاله لايدرِى بما نحن فيه، فلا مِنَّةَ له . وأنا أيضا غير عالِم بذلك ، ولا ظان له ، لأن الظن إنما يكون مع قوة الأمارات للعاقل ، وليس فى النوم إلا الاعتقادات الباطلة المُبْتَداة[١] .

والبيت الرابع : قد جمع بين تشبيه الطيف بالسَّراب ، وهو واقع على ماتقدم ، و بين تشبيهه باللفظ الذى لا معنى له ، وهو أيضا واقع ، وقد تقدم نظائره .

ولى وهى قطعة مُفْرَدة :

وليلةَ زُرْتِنا واللَّيْلُ دَاجٍ	عَلَى عَجَلٍ ونحنُ عَلَى البِرَاقِ
وَجُدْتِ لَنا بِتَقْبِيلِ الثَّنايَا	عَلَى رَغْمِ الوُشَاةِ و بالعِناقِ
تلاَقَيْنا بأَرْواحٍ ظِمَاء	عَشِيَّةَ مالِأَجْسَادٍ تَلاَقِ
ولمّا أَنْ تَفَرَّقْنَا رَجَعْنَا	إِلَى مانحنُ فيهِ مِنَ الْفِرَاقِ
فَإِنْ يَكُ باطِلاً لاَحَقَّ فيهِ	فكَمْ مِنْ بَاطِلٍ حُلْوِ المَذاقِ

ولى من قطعة مفردة :

يامَنْ جَفانِىَ فى الضُّحَى	وَأَزَارَنى وَهْناً خَيالَهْ
وَرَضِيتُ مِنْهُ بأَنْ تَرَى	عَيْنَاىَ فى سِنَةٍ مِثالَهْ
وَحُرِمْتُ مِنْهُ صَحِيحَهُ	فَهَوِيْتُ مُضْطَرًّا مُحاَلَهْ

(١) كذا فى الأصل . يريد الاعتقادات التى تنشأ بدون فكر سابق ولا روية .

هَلْ ضَامِنٌ مِنْكُمْ لَنا ضَمِنَ الجَمِيلَ ، فَمَا بَدَا لَهْ

ولى من قطعة مفردة :

تَزُورِينَنَا وَهْنًا وَلَوْ زُرْتِ فى الضُّحَى
لأَطْلَقْتِ مِنْ ضِيقِ الْوَثاقِ أَسِيرَا

وَما كانَ مَا أَشْعَرْتِنِيهِ زِيَارَةً وَلكنَّها كَانَتْ لِقَلْبِىَ زُورَا

وَجاءتْ إِلى لَيْلِى الطَّوِيلِ فَخَيَّلَتْ لِعَيْنَىَّ أَوْ قَلْبِى فَعَادَ قَصِيرَا

لِقَاءٌ شَفَى بَعْضَ الْغَلِيلِ وَلمْ أَكُنْ
عليهِ وَإِنْ كُنْتُ الْقَدِيرَ قَدِيرَا

وما كانَ إلّا فِكْرَةً لمُفكِّرٍ وذِكْرًا حَبَا مِنْهُ الظَّلامُ ذَكُورا

ولَمَّا انقضَى مَا صِرْتُ إلّا كأَنَّنى
مَحَوْتُ بِضَوْءِ الصُّبْحِ مِنْهُ سُتُورَا

للبيت الثالث ما تمناه المتمنِّى ، من ملاحة وسباطة .

ومعنى : ... ولم أكن عليه وإن كنت القدير قديرا

أننى لاأقدر على إحضار الطيف متى شئت ، فقدرتى وإن كانت واسعة، تضيق عنه .

والبيت الأخير : فى غاية التحكم فى القلوب ،لأن انقضاء الطيف بغير أثر ولا بقية ، وإضافة المحو إلى ضوء الصبح : فى موقعه وموضعه .

ولى من قصيدة أولها :

ماصِيدقلبك [يوما] يا بْنَةَ الـكِلَلِ (١)

وَزَارَنى طَيْفُها وهْنًا فأَوْهَمَنِى زِيَارَةً كُنْتُ أَرْجُوها فلَمْ أَنَلِ
هِىَ الزِّيَارَةُ مَعْسُولًا تَطَعُّمُهَا وَلَيْسَ فِيها لَنا شَىْءٌ مِنَ الْعَسَلِ
لو كانَ طَيْفُكِ أَوْلاَنا زِيارَتَهُ عَلَى الحَقِيقَةِ مَا وَلَّى عَلَى عَجَلِ
عَطِيَّةُ النَّوْمِ مَنْعٌ لاَانْتِفَاعَ بِهَا لِلْعاشِقِينَ وجُودُ الطَّيْفِ كالْبُخْلِ
فَكَيْفَ جِئْتِ إِلَيْنا غيرَ سَائِرَةٍ عَلَى جَوَادٍ ولا حِدْجٍ عَلَى جَمَلِ
وكَيْفَ لَمْ تُوقِظِى صَحْبِى وقَدْ هَجَعُوا
بِرَنَّةِ الْحَلْىِ أَوْ مِنْ فَغْمَةِ الْحُلَلِ

نظير البيت الذى أوله « عطية النوم منع » من شعرى :

زِيارَةُ الطَّيْفِ ضَرْبٌ مِنْ قَطِيعَتِهِ وَوَصْلُ مَنْ لاَتَرَاهُ الْعَيْنُ هِجْرَانُ

وفَغمة الطيب : تَضَوُّع رائحتـه . وأردت فَغمة طيب الحُلل ، فإن الحلل فى نفوسها لا فَغمة لها .

ولى من جملة قصيدة ، وهى من قولى المتقدم :

طيفُكِ مَا أَبصَرْتُهُ يَقْطَعُ ذَاتَ الأَبْرَقِ
خَيَالَ أَنَّا نَلْتَقِى زُورًا وَلَيْسَ نَلْتَقِى

---

(١) كذا فى الأصل ، وفيه كلمة ساقطة ، ولعلها : يوما .

وَافَى إِلَيْنَا فِى الْكَرَى يُثْنَى إِلَيْهِ عُنُقِى
وَانْجُمُ اللَّيْلِ لَهَا شَعْشَعَةٌ فِى الْمَشْرِقِ
كَأَنَّهَا سَاهِرَةٌ حَائِرَةٌ لَمْ تَطْرُقِ
عَيْنُ رَقِيبٍ مُشْفِقٍ مُوَكَّلٍ بِالْحَدَقِ
أَعْجِبْ بِهَا زِيَارَةً لِعَاشِقٍ لَمْ يُرْزَقِ
بَاطِلَةً كَأَنَّهَا هُنَاكَ مِنْ مُحَقَّقِ
كَأَنَّ شَوْقًا قَادَهَا وَهْىَ كَمَنْ لَمْ يَشْتَقِ
بِتُّ بِهَا أُغْلُوطَةً أُمْسِكُ مِنْهَا رَمَقِى
وَمُخْفِقٍ كَأَنَّهُ مِنْ طَمَعٍ لَمْ يُخْفِقِ
لَمَّا دَنَا الصُّبْحُ إِلَى وِسَادِهِ كَالْيَقَقِ
أَضْحَى يَعَضُّ كَفَّهُ عَلَى الدُّجَى مِنْ حَنَقِ

[خاتمة]

قال سيدُنا أدام الله عُلُوَّه :

قد انتهينا إلى حيث يجب قطع الكتاب عليه .

وقدأخرجت من ديوان شعرى فى وصف الطيف ثلاثمئة وخمسة وعشرين بيتا، وهذا أكثرعددا مما أخرجناه للبحترى ، على شغفه بوصف الطيف ، ولَهَجه به ، فإن الذى أخرجناه له مِئتان ونيف وعشرون بيتا ، بل هذا المبلغ، الذى اختصصنا به، يزيد عددا على كل ما سُطِّر فى هذا المعنى لمكثر من الشعراء .

فأما التجويد فالتقدير يُخْرجه ، والفِطْنة مع الإنصاف الحَكَمَ فيه ، ولعله إن اتفق منا فيما يَمُدُّه الله تعالى من مُهْلة ، ويطيله من مدة، نظم شىء فى هذا المعنى، ضممناه إلى هذا الكتاب ، وأضفناه إليه . والله تعالى ولىّ التوفيق ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

والحمد لله وحده ، وصلاته على سيدنا محمد وآله الطاهرين وسلامه .

فُرِغ من نسخه شهر ربيع الآخر ، سنة إحدى وتسعين وخمس مئة ، بمدينة حلب ، حرسها الله تعالى ، وخَلَّد ملك مالكها .

انتهى الكتاب

فهرس الموضوعات

فهرس الأعلام

فهرس الأماكن

فهرس القوافي

بحمد الله تعالى وحسن توفيقه ، تم طبع كتاب :

« طيف الخيال »

للعلامة على بن الحسين بن موسى الملقب بالشريف المرتضى

مصححاً بمعرفة لجنة من العلماء برياسة الشيخ أحمد سعد على

بشركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر

(١ / ٣ / ٣٠٠٠ / ١٩٥٥)

القاهرة فى { ١١ رجب ١٣٧٤ هـ
٦ مارس ١٩٥٥ م

ملاحظ المطبعة
محمد أمين عمران

مدير المطبعة
رستم مصطفى الحلبى